رواية أحلامٌ مجنحةٌ

د.ريمه الخاني

إهداء:

أن تمتطي جواد الإصرار إلى مستقبل ترسمه بأظافرك وسط صحراء مقفرة ، وشمس الظهيرة المحرقة

وفي زمن التهميش والمراوغات والكذب والتنكر، لهو من أصعب ما يمكن أن يتوقعه إنسان عاش على الفطرة.. وعلى وجه البسيطة المقعرة ،في زمن الحضارة والتحضرالمفتعل!، سيكون الوصول حينها من أجمل اللحظات وأروعها على الإطلاق خاصة إن كانت الرحلة برفقة طموحك الصلب ووسط عناية الله...

أن تجد باباً واحداً مفتوحا فقط خير من كثير متاح وأنت مكبل اليدين...

إلى كل من لم تثنه الصعاب عن ارتياد الأمواج العالية الخطرة..

ولمن قال ففعل..

المؤلفة

من القلب:

1-نتساءل أحيانا لماذا تأخذ الأعمال السينمائية ذات الجذور الروائية الغربية حيزا كبيرا من اهتمام الجمهور؟

هل تحمل ذات القيم الإنسانية التي تحملها رواياتنا القيمة؟.

أم هناك فروقا ومسافات بين طرق التفكير؟، ليكرس بونا واسعا بين الاثنين، يظهره انطباع القراء النهمين المثقفين ، أكثر من المعجبين بالعمل السينمائي المبهر، فهل طالتهم يد التقييم ليعرف كل أين نحن من عتبة التفكير الراقي الثمين؟.

****

لو اعتبرنا أن الغلاف لكل الروايات هو المدخل الأول للقارئ، كانطباع أولي، فسنجد أن أي عمل إنساني يجب أن يملك قيما إنسانية عالية وإيجابية أولا، تهم الجمهور الموجه إليه بحكمة ودقة ودراية، بمعالجة عميقة ،ومنطقا مقنعا كي تصل الرسالة بأمان لجمهوره المقصود .

.قد يمسك الكاتب بشخصياته بخيوط خفية قوية، يخشى عليها من الانفلات من بين أصابعه السردية، لكن عندما يكون الهدف واضحا للعيان، سوف نعرف تماما لماذا مارس تلك الرقابة الخفية عليها...

****

2- منذ بداية حياتي الأدبية، ما كنت يوما ما ألهث وراء المسابقات ولا الجوائز، وما كان هذا يؤرقني بحال فما أعرفه أن كل ما يكتب يمر بقناتين إعلامية وفكرية ثقافية، وأن الثانية هي لأدوم بقاء لجمهورنا المتذوق بجدية، إن عرفنا الطريق إليهم جيدا، لكن القناة الأولة مهمة أيضا وأكثر سهولة لعبور المحيط لإشهار الاعمال.

لقد كان مسئوليتي في العمل الثاني هذا كبيرة ،خاصة أن الشخصيات قد تحمل بعض معالم واقعية لكنها لم تكن مغرقة في ذلك ، إنما لخدمة الفكرة طبعا، أرجو أن أكون قد وفقت .

.

المؤلفة

تقديم:

إن ظاهرة اليتم الحقيقي، موجودة في داخلنا وفي داخل كل إنسان بطريقة ما وبشكل ما ،قد تتحول وتتغير حسب مقتضيات حياتها وتفاصيلها.. فمعنى الأم قد لا يكون الذي نعرف، وربما كان له ألف معنى ومعنى...

لذا كانت شخصية "زاهر" نموذجا لكل إنسان يعرف كيف يوظف طاقته الإيجابية ، وعلاقاته ، رغم كل المعوقات التي سيجدها أمامه ، من أجل غد أفضل كان يسعى إليه بقوة...

رواية تحكي عن شاب، وجد نفسه تائها ضائعا بين زحف الخلافات العائلية وفقدان الحاضن المشروع له والملاذ الآمن الدافئ الحقيقي ، فلم يجد حلا لمعضلته سوى إرادته وعناية الله له ..فربما تأخر الجميع في الشعور به وبآلامه الخفية...

لكنه أراد أن يكون...فكان...

البداية:

لم أكن أتوقع يوما ما أن يكون جاري جهاد.. قريبا مني إلى هذا الحد.. حتى من وجداني وفكري..

و صادقا معي لأبعد الحدود وأبعد مما أتخيل.. ولا أن أجد يوما ما أم راتب تلك الأم الرائعة ، قربي في روحها قبل كينونتها الإنسانية.. رغم البعد الجغرافي والحياتي بيننا..

لقد فطنت لهذا متأخرا جدا .. لكنني كنت على يقين من أن العناية الإلهية كانت معي دوما...

زاهر

أريد أن أرى أمي

حملقت في سقف الغرفة طويلا...وطويلا جدا، فلم أجد صدى لصوتي الخفيض سوى روحي ونداءها الصامت....ما زلت أكلم نفسي وأعرك يدي بفراغ أعصره فلا يخرج منه شيئا...كل يوم أجده مماثلا للذي قبله...وأحدث نفسي وأواسيها بين الفينة والفينة..

-من غير الطبيعي أن أعيش هنا مع عماتي ولا أعرف عن والدي أخباره الجديدة لتسعدني... ومازال سؤالي يغص في حلقي ويغص حلقي به:

-لم لا يسأل بإلحاح عني فيضمني بعد غياب.. أو يتتبع أخباري مني شخصيا لا من عماتي؟.. يكفي أن يقول لي :

-كيف حالك يا بني..

ناديتها:

-أين أبي؟

-لقد سافر إلى بلاد الخليج مع زوجته الجديدة وتركك هنا بيننا.

- هل يضايقكم هذا الأمر؟.. أين أمي ؟ لم لم تسأل عني طوال هذه الفترة؟، ماذا فعلت حتى أستحق كل هذا الإهمال؟

...-

ما أذكره جيدا أن عمتَيْ كانتا يملان من كثرة أسئلتي الملحة، فيبقى سؤالي بلا جواب مرضٍ ، والذي كان يحرقني في داخلي، وأذكر أيضا أنني رأيت صورة أمي ثلاث مرات من خلال دفاتر العمة الكبرى القديمة.. وأن الشارع الذي تسكن فيه والدتي في حمص حي الساقية إن كان هذا هو تماما.....

ويعود ذاك الهاتف المرير في روحي ونفسي ، يراوغني ، وكأنه شخص ثان يعيش في داخلي:

-يجب أن تكون شيئا مهما فما يعتمل في صدرك أكبر من أن يقال أو يوصف أو يشعر به أحد.. هذا الغموض الذي يكسر القلب والروح.... فتضيع مفاتيحه الصغيرة في غياهب الملل..

نهضت من فراشي بسرعة فوقعت كأس الماء من بين يدي، وتصدعت إلى مائة قطعة وقطعة.. كان صوتها مزعجا ، حيث كان يملأها الماء، وحرارة المناخ التي كادت تحرق أنفاسي في هذا الصيف القائظ...تكمل كل صورة الانزعاج الذي يحيط بي.

-يا ابن الـ..

-أنا ابن أخيك..

-حسنا .. قم فاجمع ما كسرته وامسح الماء والحلق بي للمطبخ أريد أن تساعدني..

رن جرس الهاتف فقمت راكضا إليه لتبعدني الحاجة نظلي بيد ها القويتين..دافعة إياي بعيدا عنه..

-ألو أخي؟ أين أنت ؟ طمَّنا عنك؟ لقد نفد المصروف فابعث بمبلغ آخر مثاله.

-أريد أن أكلم والدي أرجوك

- في المرة القادمة لا وقت الآن...هو على عجلة من أمره أيضا..

-هل طلبني ؟ إن طلبني فيجب أن ألبيه ، فلدي الكثير مما أريد قوله له...أرجوك عمتي..

-(بسخرية)وما هو يا تقبرني؟ أنا أخبره بكل شيء لا عليك..

-لا شيء لا شيء.. ليس هناك من هام..

-هيا دقيقة واحدة فقط.. فكلفة المكالمة الخارجية مرتفعة..

-ألو بابا اشتقت لك جدا جدا متى ستأتي؟

-قريبا بإذن الله هات عمتك بسرعة..

انقضت المكالمة ولم تنته حرارة عواطفي المتأججة في نفسي المضطربة...

-هل تسمحين لي باللعب في الشارع أو في مدخل العمارة على الأقل؟

-ساعة فقط وإياك أن تجرح نفسك أو توسخ ثيابك ، وإلا ضربتك ضربا مبرحا...

خرجت من المنزل حانقا دامع العينين فكل يوم تزداد لهجة عمتي حدة، فأشعر بالأذية تطعنني في روحي، وكأنها خنجر مسموم لن أنجو منه أبدا..، قد سرقت همسة من الهاتف كان فيها صوت والدي يحدث عمتي بلهفة عن وليدته الجديدة..... فلم تشف غليلي بعض كلمات باردة الحرارة ..جافة الحروف والعروق

-هل صار لي أخت ؟

-نعم..

..مازالت ترن في أذني يوميا كلماته التي كنت أتدفأ بها من هجير الأيام اليابسة.. أشيع نفسي قبل النوم وأكررها شوقا.. وكأنها قصة طفل تروى له القصة ذاتها كل يوم، ترى ما هو شعور ذاك الطفل الذي يتمتع بها ويسمعها؟، بل يستمع لقصة جديدة كل يوم من فم والدته ؟

-(همست في سري خجلا)يا رب تموتي ..يا رب تموتي...

وضعت يدي على فمي مبتسما خجلا من قولي هذا بقوة، و قد فوجئت بما تفوه فمي خائنا صمودي الضعيف.

لكأنني قمت بعمل بطولي كبير، أكسر فيه حواجز اليأس المرير.. والملل ، أنظر للسماء.. نظرة رجاء وأمل.. عل الله يسمع ندائي وأنادي في سري :

-أريد أن أتذوق طعم السعادة.. مثل كل الأطفال الذين يعيشون مع أم وأب.. كيف يا ترى غدت أمي الآن؟ هل شعرها طويل؟ وعيناها سوداوان فعلا؟، وتمكث معظم وقتها في المطبخ لتناديني بعدها تذوق طبختي الجديدة..

وقفز ذاك العفريت في داخلي يتساءل:

-هل أنت يتيم فعلا؟

فما وجدت لدي من جواب !، لكنه ألح في ندائه واستفهامه ، فسددت أذني وحاولت إغماض عيني بسرعة ليذهب..

وقفت على حائط العمارة أنتظر سامر ..

عندما أتى فرحت جدا ،ذلك لأن سامر يعاني من مرض غامض في مفاصله كما زعم وزعم أبوه يوما، كان يمنعه من الذهاب للمدرسة بانتظام، فكنت أضطر لكتابة بعض وظائفه محبة وشفقة، خاصة عندما تلح والدته في الطلب لما أصادفها صباحا عند ذهابي للمدرسة ، فيتفوق سامر وأبقى متوسطا في معدلي الدراسي !! ما هذه المفارقة الغريبة؟؟

جلسنا على حافة أصيص النباتات المتشعبة في هذا المدخل الضيق ،فقد كان نبات المرجان لا يعرف كيف يشكوا أمره لأحد مثلي ..،و كان بحاجة لتهذيب طال أمده دون أن يجد يدا حنونة تشكله بطريقة لافتة وموفقة ومنسقة بترتيب ناجح...فنما كيفما اتفق.. وكأنه يتيم الأبوين مثلي..

تحدثنا عن الطعام والشراب والتلفاز وبرامجه الساخرة وو.. ولما ناداه والده، اضطرت مرغماً للعودة..

نظرت حولي شاعرا بطاقة مفزعة في أرجاء جسدي الحار ، ركضت في ممر العمارة مرات ومرات .. رائحا غاديا.. حتى نال مني التعب والإعياء وكدت أن أغيب عن الوعي فعلا ولا أدري لماذا شعرت حينها بذلك.....فهدأت قليلا لأستعيد توازني ، تلفت خوفا من أن ينعتني أحدهم بالجنون.. وعندما رأيت أبو سامر ذاهبا لعمله بعد الظهر مسحت مظهري بالهدوء المصطنع كعادتي، وصعدت السلم متظاهرا برغبتي في العودة للمنزل، بعد أن حييته بأدب ...و حييت في طريقي جهاد الذي كان يسافر إلى الخارج كثيرا، كان يعبث في شعري مازحا :

- لماذا وجهك أصفر يا زاهر؟ هل تعاني من فقر دم؟ اسأل عمتك لتصحبك للطبيب، و ما هذا الشعر غير المرتب يا زاهر؟ اذهب فاحلقه ..

لم أكن أدري لماذا كنت أتمنى كسر حواجز الكلفة بيننا ، فأشعر أن فضولي ينهشني لأعرفه أكثر باختصار كنت معجبا به.

-مرحبا أستاذ جهاد وأهلا بك في بلادك..

-أهلا يا زاهر في أي مرحلة دراسية أنت الآن؟

-السادس الابتدائي

-رائع جدا.. أدعو لك بالتوفيق فادرس جيدا لكل مجتهد نصيب، فقد يتيسر لك سفر غدا من يدري؟

- هل سأسافر لروسيا؟ فرنسا ؟..أقصد مثلا يعني..

-كل شيء في مكانه وزمانه جميل.. وقد أساعدك كي تتزوج من هناك.. لما تكبر..

وضحك ضحكة ماكرة اهتز منها كياني لجرأته التي فاجأتني ..

ابتسمت خجلا ..وتصنعت الجدية محاولا المضي برزانة ...

حييت جهاد وشكرته ومضيت وسط تشييعي له بعيني التي ملأها بالأمل والسعادة...كاد يقفز شيطاني من قمقمه لكنني أغلقت له عيني.. وتركت أحلامي تسير على غير هدى..

عالم مدرسي غريب...

لم أكن أحب المدرسة كثيرا ،ولم أكن في مدرستي نجما لامعا كبعض المتفوقين فيها ، لكن ما أعرفه جيدا أنني أملك من الطاقة والحماس ما يمكنني أن أكون مثلهم وأفضل...لكن لماذا يخيب ظني بنفسي أمامهم كان السر الغامض الذي لم أجد له حلا بعد...

كنت أتعجب من نفسي عندما تصدر مني كلمات محرجة جدا تفصح عن مشاعري الداخلية بعفوية جدا

كانت تزعجني ..وكأنني ظمئ لمن يسمعني.. ويشعر بوجودي..، حتى لو كلفني هذا وقفة على حائط غرفة الصف رافعا أحدى قدمي وذراعي للأعلى كعقاب زاجر بسبب ثرثرتي الكثيرة..

ما كان يؤلمني فعلا هذا التسيب الذي يسببه المعلمون من سوء إدارة الصف المدرسي ومشاغبة من يشوشون علي متعة الإنصات للدروس، وإخفاقي في إيجاد حل لهذا واتخاذ رفيقا آخر غير سامر المتغيب غالبا عن مدرسته...

كان خجلي وحيائي الكبيرين يمنعاني من تصرف جريء يرضيني، كنت أندم أنه ضاع مني فمنعني من الوصول لما أريد حينها لتحويل الموقف لصالحي في صداقات جديدة تخطف منى عنوة...

وقد كان الأستاذ يجلس على كرسيه ، مرددا كالببغاء ما يقرأه في الكتاب، غير عابئ بأسئلة الطلاب! وكنت أحمله سبب تأخري في هذا العام.. فما كنت لأفهم كل شيء كان يقوله ، حتى بت أشعر بالملل ..وقد كررت مرارا وتكرارا على عمتي لتنقلني لمدرسة أخرى عبثا...فقد كان قربها من المنزل من أولوياتهم طبعا..

كنت أفكر دوما وأكرر في نفسي :

-كيف لا يدري المدير بكل ما يجري حوله؟ بل ما ذنب من يريد أن يفهم وسط كل هذا الشغب؟

جربت يوما الذهاب لموجه المدرسة، رغم أن احمرار وجهي كان يفضحني متسللا من خلال خلاف مدرسي غريب، بين الطلاب والمدرس ،وضعت حينها في موقف صعب لأصبح شاهدا على من كان داخل المعمعة وكعنصر مخابراتي شاهد...

كل الأمور كانت جيدة لما أفصحت عن الأسماء وكأنني أقدم خدمة جليلة لم يكن يستحقها أبدا ،لا أدري كيف حدث هذا رغم مقاومتي !

ورغم محاولتي الشكوى وشرح ما يؤرقني فيها ،كان يواجهني بنكران وزجر وتكذيب..سبب لي إحباطا كبيرا....خاصة بعد أن جنيت عداء الكثير من طلاب صفي لما فعلت ما فعلته ...لأصبح وحيدا من جديد...

-أنت مخابرات صح؟

كان سامر المتغيب غالبا عن ساحة حياتي ،وشعوري الخاص بالالتزام تجاهه يربكني ويدفعني رغما كي أواظب على متابعة دروسي لأجله، وليس لأجل نفسي فقط، ففي بعض الأحيان كنت أشعر بأن هناك أعمق من السر يظلل حياة سامر ويربكها ويمنعها من التواصل معنا بحرية وانطلاق.. لكن متابعتي خدمتني وفتحت لي بابا لسؤاله عن الدروس هذا المتفوق الذكي...

تذكرت الآن عند عودتي من المدرسة قائمة طلبات عمتي...والتي لا تنتهي..

والتي لا أستطيع إلا أن ألبيها جميعا فالمال دائما يبقى ناقصا عن النصاب، وكأنني جني الفانوس، فمتى أنال حصتي من المكافأة المالية؟.. كنت أسكت هذا العفريت والهاجع في أذني يثرثر رغما عني وأحيانا كانت تضجرني كثرة أسئلته.

-إلى متى؟

فقدت المال يومها وكدت أبكي... مشيت على غير هدى أهذي بحرقة...نظرت حولي فوجدت قرب حاوية القمامة أكياسا كثيرة تحوي كتبا.. ماذا لو بعتها، كيف سأحملها أصلا؟، تذكرت العم إبراهيم الذي يرصف كتبا مستعمله على جدار شارع الحلبوني[1] حملت الأكياس من جسر الرئيس جارا إياها بعناء شديد حتى وصلت إليه:

-هل تشتريها مني يا عم؟

نظر فيها وقلبها كلها.. وأخرجها من الأكياس بفوضى مزرية..

-الكتب الجامعية لا حاجة لي بها اذهب إلى أبي محي الدين في الحي القريب ربما اشتراها منك..

-يا عم انكسر ظهري بحملها أرجوك فكر جيدا..

-مممممم بخمسمائة ليرة فقط قبلت؟

-قبلت...

كان مبلغا وفيرا وفرت منه جيدا وضحكت ضحكة غريبة رغما عني لما ابتعدت عنه..

ما عرفته وآمنت فيه ،أنني كنت أحصل على قائمة أسعار مناسبة لحاجيات المنزل وبطريقة اقتصادية. كانت تكلفني المرور بكل المحال التجارية التي في سوق باب سريجة [2]حتى أصل للسعر المطلوب ولا أخرج إلا والمبلغ الذي معي أدى مهمته تماما.

كنت أبتسم بغبطة وتعجب معا ، عندما أنجح في مهمتي تلك ..وخاصة عندما أجد أن اسمي يتغير من مكان لآخر ..

---

[1]حي معروف يحوي مكاتب كثيرة في دمشق
[2]سوق شعبي عريق من أسواق دمشق

فبائع الخضراوات يدعوني ، أبو ظافر ، ومحال اللوازم المدرسية يناديني يا أخا العرب! وبائع الملابس رغم أنه نادرا ما أذهب إليه إلا لحاجة ملحة في نفسه، كان يناديني ، سيد زاهر...كان الاسم الأخير يشعرني بأني بت رجل حقيقا...وأنني زاهر بشحمه ولحمه.. ولكن..

ما كان يؤلمني بقوة، تلك الجملة الغريبة التي كانت عمتي تتفوه بها غالبا لما تكون عصبية المزاج:

-لما تكبر ابحث عن زوجتك وحدك كما فعل أبوك وأرحنا من عناء البحث..

كانت تلك الجملة تخدش حيائي وتجعلني أسبق الزمن وأسرج خيلي وأشرد بعيدا عن مكاني وأتمنى لو كبرت فورا...ويبقى سؤالي الملح :

-هل أنا فعلا عبء عليهما؟

****

في المرحلة الإعدادية

لم أعد أدري كيف تمر السنون غريبة مزعجة لحد الانفجار.. فأنا الآن لم أعد أوقع كيس الحليب الطازج ليسيل ، وأبتلع نصيبي من الصراخ من عمتي الكبرى خاصة،...ولا بت أسخر أو ابتسم رغما عني ، لما كان يخجل سائق الحافلة ،عندما أهم بالعودة، من حركته العصبية التي كانت تلازمنه في رقبته، وكأنه يلتفت للنافذة بحركة نزقه لاإرادية...ولا عدت أتعجب من شيء...

لقد بات الكون الآن قابلا للكسر أمامي و في نظري لكن يجب ألا ينكسر ولا حتى أكسر دراجتي التي تستنفذ نقودي القليلة في الإصلاح...كانت عمتي نظلي قد أخذت مني حصالتي الصغيرة وأضافت القليل من نقودها لتشتريها لي...وبقيت تذكرني بجميلها العجيب دوما!

كنت أريد أن اشتري بثمنها شيئا آخر...ربما كتب.. ربما..

ما رسخ في ذهني هذه النظرة الخاصة لدى زيارتي للحاج نظمي كل فترة لما أجد المنزل هادئا جدا ،أستطيع التسرب والنفوذ بصمت إليه وفي مدة زمنية قياسية...

ما كان يثير شفقتي واستغرابي...بقاء الحاج نظمي وحده في المنزل، يقرا ويستمتع بوحدته!!يحكي لي كيف كان يقلب مجلات الديكور وينفذ تلك التصاميم بيديه، ويتجول في بيته البسيط المرتب ليريني عمله الجبار هذا..

ومما أثار دهشتي حقا...كيف يستطيع أن يثرثر مع الجدار في غيابي كما زعم ؟!

-كيف تعيش بمفردك يا عم وأين تامر؟

-يا بابا أولادي مذ كانوا صغارا علمتهم على الاستقلالية وتدبير أمورهم وحدهم.. جميعهم سافروا إلى الخارج وتدبروا أمر الخدمة العسكرية[3] والبدل بأنفسهم.. ونسيت أن هذا عزز من روحه العصامية والمادية على حد سواء...انتقل إليهم الفيروس المادي الغربي وبات مقياس المصلحة، هو مقياس الحياة الاجتماعية المعتاد..

وها أنا ذا أمامك ..ربما كنت منافسا لهم في هذه الخصلة فاستحققت تلك العزلة التي رضيتها بصمت..

-وحدك و حدك؟

-ابنتي تمر كلما سنحت لها الفرصة...هل تتخيل يوما ما أن تقودك طموحاتك للأوهام؟ احذرها لو كانت كذلك...

كنت أشعر بالبرد كلما زرت الحاج أبو نظمي...كيف تأقلم مع هذه الوحدة المقيتة ، بل كيف رضي بها بداية؟ وكيف يحافظ على مشاعره الصحية وهو يحتاج أكثر من أي وقت مضى لعناية خاصة؟!،هل سيحصل له الشيء ذاته عندما يبلغ من العمر مثله؟، لقد وجدت منزلا أكثر برودة من منزلي.. إذا لا غرابة في الأمر..

لقد كان يحملق كثيرا في سقف الغرفة وهو يتذكر أحداثا قديمة وكأنه ينبش قي سجلات متهرئة لا لزوم لها...

وقد زاد شعوري المحزن حينها رغبتي في البحث عن عنوان أمي في حمص...ولكن أنى لي هذا وكل حركة محسوبة علي من قبل هاتين العجوزين التين وكلتا بتربيتي؟

أفقت في اليوم التالي على صراخ عمتي الكبرى...

-نظلي يا نظلي...

اقتربت بحذر منها ..لأرى عمتي الكبرى مسجاة بلا حراك...

عانقت عمتي الصغرى وبكينا معا...نعم ..بكينا معا.. كانت ضمتها لي حينها لا تنسى ..وكأنني أراها من جديد.. وفيها ريح أمي...

كان إصرارا خفيا ينمو في ذهني.. أنني لن أقبل أن أبقى وحيدا بعد الآن.. يجب أن أنقذ نفسي بطريقة ما...لقد كنت أكرره في قلبي خفية، أن التحرر منها ليس هو الهدف بحد ذاته ، وإنما أ ن أهيئ بديلا سلفا يغطي عما كنت أعانيه سابقا...فربما فقدتها يوما ما، فماذا أفعل لو حصل؟، هل أضيع؟؟؟؟
وهل سيأخذنني حينها والدي إليه؟، أم أبقى مع وحدي والجدران والدراجة؟، رن الهاتف في أذني صائحا:

-اذهب للعم نظمي..

---

[3] هي الخدمة الإلزامية التي تفيد مستقبلا في حالات خاصة لحماية الوطن

نظمي؟ ومن قال أنه سيقبل ؟يا للبؤس الجديد..

صرخت أعماقي :

-متى ينتهي هذا اليتم؟؟؟

****

مأزق غير متوقع...

كانت منار شخصية قوية في عمارتنا المتواضعة، لها خصوصيات تلفت الأنظار، جميلة بكل ما تحوي هذه الكلمة من معنى.. ساخنة بكل سلوكها وكلامها وحركاتها، لا يمكن أن يتغلب عليها أي احد قولا أو فعلا...كانت رائعة في نظري ربما لأنني وجدت فيها ما لم أجده في نفسي.. لا أدري كيف جعلتني أتتبع ريحها وسلوكها.. وأتمنى لو كانت أختي فعلا...لتحدثنا وتحدثنا و تحدثنا....

كانت تصطاد في الماء العكر حتى لتحار كيف ترد مكرها البريء بمكر آخر مقابل، لن أنسى ذلك اليوم الذي هبطنا فيه سلم العمارة معا صدفة، وكنت متأخرا عن مدرستي ، وهي تنتظر حافلة مدرستها الخاصة الفاخرة، كان واضحا على منظري التعس أنني لم أنم بشكل كاف.. ابتسمت كعادتها بسخرية لاذعة ،وقد صادف هبوطي السلم نزول جل أولاد العمارة.. هل هو يوم الجمعة الفوضوي السابق هو الذي سبب لنا كل هذه المحرجات في هذا الصباح الغريب؟، ربما..

-يا حرام كل الحق على التلفزيون..

لم أدر ما سبب تدخلها وسخريتها الجريئة المزعجة،ولم أكن قد ألقيت السلام عليها أصلا، ماهذا الفضول الغريب؟.

ولن أفعلها لاحقا أيضا.. ولن ألقي السلام عليها كما فعلت أبدا...غيظا ونكاية..

لكن هبوط سامر قبلي قد يسر له الرد عليها.. قائلا:
-هل يستوي الذي يعلمون والذين لا يعلمون؟

فلم ترد ولم تلق بالا.. وأدارت ظهرها غير مكترثة.

مضى معي يومها متلفتا بعجب.. من جرأتها، فوجدتني وقد تجرأت لأكمل ما بدأه..وقد تنسمت ريح القوة منه

-أي والله صح...فالمدلل لا يرى إلا نفسه..

-لا شأن لك بأمور الناس عليك من نفسك أولا.. أنا بخير وأمي تراعيني وتنظر في كل شؤوني.. انظر لنفسك أنت يا مسكين...

لا أدري حينها كيف هاج غضبي ونفر مني الدم لرأسي.. وحاولت ابتلاع حزني...فزاغ عني صوابي ،لماذا تضغط على جرح أيامي؟..

لكمتها بقوة ودفعتها بعيدا عني.. وقلت لها بحزن ودموعي على خدي :

-يحق لك أن تكوني ظالمة.. فأنت لا ترين أبعد من مرآتك ووجهك المخربط...البشع..ا لظالم..

لم أتوقع أنني آذيتها وزرعت كدمات على وجهها البض النقي.. فأبعدنا سامر بقوة متعجبا من تصرفي المفاجئ هذا،والأهوج.

صعدتْ السلم غاضبة صارخة ،لتلم أولاد العمارة حولي ويهبط والد منار ... فقد كانت مشادة صعبة تلك التي أتت بأم راتب والدتها...والتي كانت نظراتها لي مختلفة جدا .. كانت المرة الأولى التي أراها جيدا.. فقد اخترقت قلبي بلينها عندما قالت لي:

-اعتبرها أختك الصغرى يا زاهر الرجل ،هل ترضى أن يضربها أحد هم ؟ ربما هي ماكرة لكنها طيبة القلب في الحقيقة، لا تحمل روحها، سوى النوايا الحسنة البريئة، اطمئن ..وصل على النبي.

كان موقف أم راتب يكفيني لكي أرى فيها عيني أمي..التي غابت عني طويلا..كان فيها ريح أمي..

قلب أمي...لماذا لا أقول لها ماما؟ يا لها من كلمة سحرية ..أشتاقها.

لا أدري.. كان حضورها لمنزلنا وتوصيتها وتواصيها لعمتي واختراق أجنحة الحصن الحصين الذي يلفني بحزمه رائعا، ..يكفي لكي يزرع برعما منتشيا في قلب جاف بللته كلماتها الحنونة...حين أخذتني جانبا بحنان لافت أدهشني جدا:

-لو احتجت لأي شيء يا زاهر فأنا بالخدمة...لا معنى لكلمة جار دون أن تحقق معنى بفعل وعطاء...

ليلتها رأيت عيني أمي في حلمي تلبس تاج الزباء...تمسك صولجانها.. تنادي للجنود...

-هلم إلي فنحن أمام حرب ضروس ، الأسبوع القابل...

كانت عينَي أم راتب..مثلها تماما...تنظر إلي بقوة المرأة و في نفس الوقت بحنان دافق ..لكنها لم تنبس ببنت شفة...

جولة مع جهاد...

مازال جهاد لغزي الغامض الذي يجب أن أفك رموزه الممتعة...بسعادة غامرة.

كنت كلما صادفته خارجا من منزله أتصنع القرب منه لأحدثه وأحاوره.. ولو للحظات و مازلت أحتفظ بتلك الصورة التي جعلتني مسخا أمام الجيران...لا أدري كيف أعدل تلك النظرة ...وأنا أرى جميع الأعين تحاسبني صامتة ..هكذا رأيتها.. رغم محاولتي تصنع الهدوء وعدم الاكتراث..تقريع عمتي بشيرة كان يكفيني مئونة عام كامل...ما أقساها عندما تقسو وما أروعها عندما تقترب من نفسي.. كيف جمعت النقيضين؟، وقد اقتربت مني أكثر واقتربت منها أكثر لما حكت لي تفاصيل الحياة الاجتماعية في آخر القرن التاسع عشر حيث كانت الدولة العثمانية تخبو وتتفكك قالت لي:

-لقد علمني زواجي القصير الكثير...كنا غائبين عن العلم والتعلم ، فقد كانت معتقدات ذاك الزمان غريبة جدا ومن المعيب أن تتزوج الفتاة غالبا، فقد كان الأهل يعتبرونها قصورا عن التربية والإعالة ، ولا أن تتعلم لأن واجبها الأسري هو الأهم كان التفكير حينها يحمل تناقضا رهيبا ، والأهم أن الحياة الثقافية حينها كانت قريبة من الصفر.. انظر لمكتبتي الصغيرة، (وفتحت لي خزانة ملابسها فبدت لي مكتبة عظيمة رائعة) ستكون لك يوما ما، لم أقرأ جلها لكنني أحاول ، أن تكون المرأة مثقفة مصطلح عظيم لا يدرك قيمته إلا من ذاق وعرف...هي الأم والأخت والابنة ، هي كل العالم من حولنا ، لذا لما يحاول العالم إنزالها من برجها العالي الثمين الثقافي والأخلاقي والسلوكي وو، يكونوا قد قضوا على جيل كامل ذلك لأنها أكثر من نصف المجتمع...

سرني حوار ي مع عمتي جدا، وعلقت جملها في ذاكرتي وتمكنت منها بقوة عجيبة، كما سرني حواري مع جهاد ذات يوم ..وسرني أكثر جملة زرعت في نفسي أملا جديدا ومازال كلامه عالقا في ذاكرتي :

-نحن يتامى مجتمع ،وليس يتامى دم وأهل وعائلة ،غدا ستفهم قصدي تماما، فالمرض سرطاني مخيف.... وتراجع المحبة الحقيقة بين أفراد العائلة الواحدة في عصرنا هذا ،ينذر بالخطر والذي لم يتنبه له أحد إلى اليوم.. إن كنت أعيش مع زوجة أب أحبها وأنت لا تعيش مع والدتك فالأمر سيان...وربما كنت أفضل حالا منك...فزوجة أبي لا شرقية ولا غربية...ورغم هذا آمل لو عشت مع والدتي رغم كل البعد الذي غدا بيننا فهي الآن مطلقة تعيش في فرنسا مع أختي الصغيرة ،تدير مطعما وحدها كرجل بعد أن توفي عنها زوجها الجديد، ولم تعد تفضل العودة بعد الآن بعد أن تقدم بها العمر...

كان حديث جهاد يحفزني ويجعلني أبحث عن فرجة أنفذ منها للأفق الأوسع...

-عمتي هناك رحلة في مدرستنا أرجوك اسمحي لي بالذهاب

-لأول مرة سأسمح لك وأنا أقدر أنك حزين على عمتك مثلي، ولكن لا تطيل وحاول العودة في أقرب وقت للمنزل، فقد بات موحشا جدا بعد رحيل أختي وصديقتي وبيت سري يا زاهر لا تغب عني أرجوك..

لم أكن أتوقع أن أجد نفس عمتي بشيرة الكسيرة تتمسك بي بهذا الضعف المحزن،.. بعد أن كانت تذرع المنزل صراخا وزعيقا ...هل كانت عمتي نظلي تسيطر عليها؟، باتت خفيضة الصوت مذبوحة الفؤاد..

سامحني يا رب ..ستكون لي معها كذبة أولى وسراح أول...وقد قفز سؤال مفاجئ في ذهني:

كيف مضت الأمور هكذا دون أن يحضر والدي؟ ودون أن يلتف حولنا كثير من الأهل؟، بكل الأحوال هذا لن يعيقني عن أن أحكي لها ما سيحصل بالتفصيل ، فهي عمتي وستبقى...

لا أدري كيف ساقتني قدماي بشجاعة عجيبة لسوق الصالحية[4]، كنت أود بقليل من النقود أن أشتري شيئا لأمي.. أي شيء.. فقد وجدت سبيلا لبيع ما وجدته يوما من الأيام في خزانتي كان ثمينا مخبئا بحرص، كان فألا حسن على كل حال خاصة لو كانت كتبا، ولها سوقا رائجة في بلادنا وأسواقنا الممتدة على رصيف الشوارع!!...

اصطدمت رغما عني ودون انتباه بشحاذ ضرير...ووقعت علب العلكة أرضا...ومازال يقول :
-كريم يا رب...يا رب كريم.. كريم يا رب...

كان أنيقا جدا ، تفوح منه رائحة الجنة..الجنة؟، ضحكت في نفسي ، فربما هي رائحة البخور ...جمعت له العلب وصففتها برفق فأمسك يدي قائلا بحزم:

لا ترم النقود يا بني في العلبة، لكن خذ بثمنها علكا...

فعلت ، لكن لا أدري لم لفت نظري جدا...أحسست أني أحبه بلا أسباب...صوته كان يذكرني بالعم نظمي المستسلم لقدره بقوة خاصة عندما كان يقول لي لما أضعه أمام سؤال محرج:

-الله كريم...كريم يا رب

تتهيأ لي صورته أمامي بكاملها ...ذات اللهجة وذات السمة..! سبحان الله. .يزرع الله ملامحنا في نماذج عدة تضعنا أمام المرآة يوما....ولنرى أننا لسنا وحدنا في العالم. .ورغم هذا لم نستسلم في حين يمكننا أن نجد آلاف المخارج المفيدة؟.

كان الطريق طويلا إلى حمص .. وجميلا جدا والهواء المنعش يزداد برودة كلما اقتربنا إلى هناك، هذه الحافلة التي كنت في مؤخرتها وقربي أم وأولادها.. وقد أشبعتهم من الطعام الشهي كما يبدو لي، من صنع يديها، وقد أصابني من حنانها بقطعة فطائر أحس أنها أطيب ما في العالم كله.. أكلتها بلهفة محاولا تصنع التأني، كانت تحمل في كل لقمة فيها لذة ما بعدها لذة....

كانت ورقة العنوان التي التقطتها شفاها من عمتي المرحومة تكفيني كي أبحث بجدية...لم أشتر كثيرا من الطعام فقد كانت قبضة القضامة[5] من تلك السيدة تشعرني بالشبع لدى كل حبة أتناولها...

لم يكن هناك مشكلة من كتابة اسمي وتوقيعي على دفتر إحصاء المسافرين.. المهم أن أصل فقط...

---

[4] سوق شعبي وسط مدينة دمشق.
[5] هو حب حمص محضر بالسكر

تنفست ريح الحرية وكدت أبكي بصوت عال فتلفت حولي خوفا من أن يرى أحدهم دموعي الذكرية...نعم إنني الآن في المرحلة الثانوية سوف أصبح رجلا مختلفا...ولكنني أبكي الآن...إنها الحرية..

كان الطريق صحراويا لا اخضرار فيه إلا قليلا، ورغم هذا.. كان الاخضرار القليل في الطريق ينعشني ورائحة النباتات تتداخل وتترك أثرا يفوق الوصف..و مع نسمات تزداد برودة كلما اقتربت من حبيبتي حمص...وأحلاما وردية تلفني بعبق الخيال الجديد...وعفريتي صامت لاهٍ...

فجأة وجدت نفسي أدق الباب وأنا وسط دهشة عظيمة .

-هل وصلت فعلا؟

...نظرت للعنوان ..نعم هو ذاته...منزل الخانوق...

-مرحبا.. أنا زاهر ابن ثريا ..أنا ابنها.. هل لي برؤيتها؟ وأعتذر للغياب...

نظرت إلي خالته يـُمن ببسمة على عفوية طلبي.. وكادت تضحك... كانت نظرتها حانية هادئة على غرار ما توقعت.. نظرة عميقة الغور دافئة المشاعر:

- بعد زمان يا زاهر .أين أنت اتصلت بك مرارا ولكن ... ؟ توقعت أن أراك قبل هذا.. خيرا إن شاء الله.. لا أعرفك إلا وأنت باللفة ههه .. هل لديك إثبات؟

كلماتها اللافتة امتزجت مع شوقي فنسيت أن أسالها ماذا بعد لكن؟

-لا إثبات إلا نفسي ..وإن خشيتِ مني فسأنصرف...

-دمعت عيناها وقالت بحزن شديد...تفضل تعال. .يا زاهر من سيدق الباب على الدراويش امثالنا؟، إلا من كان صادقا فعلا...

-جلست غير مصدق ما يجري...تتجول نظراتي في الأرجاء كان مكانا بسيطا غاية في البساطة... زرع في زواياه نتاج الخياطة بكل الأنواع أغلفة العلب للمناديل الورقية ، وأغطية المناضد الصغيرة، وماكينة الخياطة التي سمعت عنها.. هي هي...نعم كانت تلك الفتاتين تأكلان من عمل يديهما مع والدتهما...

-ماما ثريا موجودة؟

-سوف تتغذى معنا اليوم ما رأيك؟

-لا ضرورة يا خالتي...

مسحت يـمان دموعها وقالت لزاهر بقوة

-تعال لأقبل رأسك يا زاهر ..أنت من رائحة الحبيبة الغالية

-أمي ماتت؟

-لا لا من قال تعال وشاهدها.. لا سمح الله...

فتحت الباب على غرفة مرتبة بشكل بسيط جدا لا تدخلها أشعة الشمس كثيرا رغم أنه وقت الظهيرة..تخرج منها رائحة المرض...

وامرأة تسبح بنظراتها للفضاء من خلال نافذة تطل بالكاد على الشارع..

اقتربت بهدوء وحذر...وجلست قبالتها واضعا عيني بعينيها...محاولا جلب انتباهها بسعال مفتعل من حنجرتي التي دفعتني للسعال بقوة أضحكتني رغما عني...

-..أمي..أمي.. جئت لك بوردة حمراء علها تعجبك...

واستدركت عمتي يمن قائلة:

-آسفة يا زاهر.. فأمك تعاني من حالات نفسية هستيريية صعبة ، بعد ما خطف والدك منها ابنها وطلقها بعد أن عاشت حياة شقية معه، وأكمل الطريق أبوك فأوصدوا عليها الباب لأنها حاولت استرجاعه بطريقة غريبة من أم مكلومة.. حذفوا وأغلقوا كل شيء يصلهم به. نكاية وانتقاما

..كان خطأ فادحا.. سامحهم الله ورحمهم ...

كل هذا لأنها رفضت العيش مع سكير خمّير منفق بلا حكمة... مقتر بلا فهم..مشاكس بلا رأفة بدعوى الصبر والرضى..

-هل كان يضربها كل يوم؟؟

-نعم وهناك ما لا يلزم ذكره الآن..

-ألم تجد طبيبا مهتما وخبيرا؟

-حالتها مستعصية ولا فائدة منها هذا ما وصلنا إليه الآن...وأخشى أننا لم نصل للطبيب المناسب.. وكلهم يستنزفون مالك بلا قرار وجيه..

-لن أدعها هكذا أبدا لن أدعها...هناك خطأ في التشخيص حتما هكذا قرأت في كتاب جهاد قديما..

أقترب ببطئ شديد...أمسك بيدها...فتقبض عليها بقوة...مستغربة.

قبلتها...ضممتها وصرخت عاليا أبكي بحرقة رغما عني..

-جئت لأجلك يا أمي...هل تسمعينني؟، جئت لأجلك....هززتها حركتها.. وبكيت على صدرها كالأطفال...

سأكون طبيبا لأجلك.. لأجلك فقط...

دفعتني برفق وكأنها نسيتني فجأة...لتعود لفضائها المعتاد...

نظرت إليها نظرة المشيع لحبيب بعيد المنال، صعب المراس ، عنيد ا ومعاندا، فتحت باب المنزل حزينا فهرعت خالتي إلي :

-إلى أين ستذهب يا زاهر؟ قد سعدت بك ونحن وحدنا هنا...ستبقى معنا صح؟، تغذى على الأُقل

-أكاد اختنق ..أريد هواء ..سأعود يا خالتي انتظريني سوف أعود...

الخاطرة الأولى لزاهر:

لقد اكتشفت أن الكتابة هي عمل أمين سهل وممتع،تحمل في طياتها فكرا وعقيدة، مصباحا يضيء، أو شيطانا يعطل...

لقد صنعت لي عالما مشتركا مع بشر يقرؤون بنهم مثلي كسامر وجهاد، صنعت لي مغارة فاترة لكنها حصينة لا يدخلها غيري ، ولا يفتشها أو يعبث بأسرارها أحد.

لي وحدي فقط..

لقد كنت أرمق شاشات الحاسب الرقمي الكبيرة هناك في مكتبة المدرسة ، بشوق ورغبة للبقاء أطول وقت ممكن وراءها لأتعلم وأتعلم و أتعلم.

أستزيد من عبق الحاضر الجديد...

وأحدث نفسي وحدي.... بقلق أحيانا ..وأتذكر درسا للصحابي أبا ذر الغفاري أحيانا أخرى ..

لقد كان صحابيا قويا، لايخشى في الله لومة لائم، يقول كلمته بقوة وصدق، لقد قال رسول الله عنه : "رحم الله أبا ذَرّ، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده".

هل سأبقى وحدي مثلا؟؟؟

وهل سأصبح قويا مثله؟؟؟

أشعر بمحبته لي.. كيف لا أدري... يتراءى لي من وراء الحجب..يسلم علي بكلنا يديه المعطرتين بكلمة الحق...
وأشعر بأني أحبه كثيرا...
كنت أتمنى أن ترى يا أبا ذر سطوري غير المترابطة، والتي ولدتها الوحدة الداخلية في روحي وقلبي والتي كانت تؤثر على حواراتي مع من هم حولي...يكشفون عورات حياتي وريح الألم فيها...فتفقدني مرونتي في الكلام مع الوقت ...

لكن الورق كان ينتصر علي دوما، كنت أكتبها وحدي وأوزعها على فراغ الأيام...وأتمنى لها أن تجد مكانا جديدا للخروج من صومعتها المعتمة لفضاء رحب جميل .

كنت كلما أتذكرك يا أبا ذر يقفز عفريتي ويصرخ في وجهي:
-هل تريد أن تصبح أبا ذر؟

فلا أجيب...

أبا ذر يظهر في العالم الرقمي...

أغلق أذنيه الآن. .فهو متعب جدا من هذه الحياة المنهكة ، والتي تفترسنا من الداخل...وتكرس لنا الوحدة الغريبة..

هرب من واقعية الحياة التي لم تذر له صاحبا:
وكتب:

هل باتت الوحدة في عالم الواقع أكثر جدوى في مسيرة الألف ميل؟.
أم يجب أن نبتلع ما نجد ونهضمه بإغفال؟.

هل من الطبيعي أن نسلم عقولنا لسطوة الآلة المفكرة؟.

وهل علينا تقبل سطوة كل شيء من حولنا؟.

ليمتزج مع نفوسنا السمحة فيخرج قيئا وسموما؟...

فالعلاقات سطحية تكفي كي نضمن سلامة عقولنا الهشة.. فقط.

هذا مايجب فعله..وليذهب صدق المشاعر للجحيم..

مازال يصرخ بصوته المبحوح تارة في داخلي..
وتارة أخرى في حروفه القديمة الجديدة..

وتارة في فضاء نضيع فيه ، فلانجد سوى الضوضاء والفوضى..

سوى العشوائية والفضول الفارغ، بلاهدف كنا نمشي...وعلينا البحث من جديد عن أنفسنا...

نعم مازال ينفخ في حروفه القديمة...

والتي كانت قليلا ما تُقرأ...ومازال يرفض العمليات التي تخطره بضرورة استئصال حباله الصوتية..

من أنت يا أبا ذر حتى سرت دماؤك فينا جميعا؟

نحن الغرباء الذين ما فتئنا نكرر على الملأ من نحن؟؟؟

متى نجد مانبحث ونفتش؟.

ربما وجدناه يوما ما...
..لكننا مساكين. . مساكين فعلا...هؤلاء الذين يبحثون قرارا...

من سيفتش معهم؟؟؟

****

خاطرتي الثانية

زاهر

مراجعات...

لم أصدق نفسي لما قرأت خاطرتي مرات كثيرة!!

هل فعلا أنا من كتبتها؟؟؟؟
وكأني لم أقرأ عمري ولم أكتب أبدا ...

لقد خرجت عفويا بلا تخطيط..كانها بوح على بوح...
هل يمكن للعالم الجديد الذي أعيشه في غفلة من عين عمتي الضعيفة .. أن يفجر فيَّ كل هذه الحروف؟ الفضل لمن أولا؟

كنت أتسقط أخبار جهاد تارة من حديث الجيران لبعضهم في مدخل العمارة صدفة.. أو من سامر الذي كان يجمعها لي من هواتف والده لوالد جهاد ، ويعرف شوقي لتلك الأخبار المفرحة والتي كانت تعني لي الكثير...كان تطفل سامر الكبير يسعدني بطريقة ما..

بقيت مدة طويلة أعيد قراءة خاطرتي الأولى مرارا وتكرارا على نفسي وأتردد في إخبار سامر بها..، فكل ما كنت أكتبه قديما كان برأيي الخاص غير ذا قيمة أبدا...ورغم هذا احتفظت به فربما كان له دور في قابل الوقت...فمن يدري؟

ما كان يؤلمني حقيقة تراكم المواقف التي أخرجت المارد في نفسي...فعندما عدت من حمص كنت قد أنهيت في الطريق قراءة رواية نهاية رجل شجاع لحنا مينا والتي استعرتها من سامر ....لم أكن لأتوقع تفاعلي معها بهذا الشكل حتى خلتني سأبكي أمام الناس في الحافلة...لكنها شكلت في نفسي قناعة خاصة، ليس المهم أن تكون شخصية لافتة ومميزة بل الأهم أن تكون راض عن نفسك أولا بعد رضا الله.. هكذا كانت تقول لي عمتي بشيرة عندما تنهي حصتها من تلاوة القرآن يوميا وصباحا.

خرج لي سامر وقد كان مكفهر الوجه على غير عادته وقد الجم لسانه عن البوح الذي تعودت أن أجد فيه بعض ألفة بيننا يضع مفتاحا على قفل حياتي ويكسر جمودها المقيت:

-أسبوع يا ظالم ما أنهيت الرواية العظيمة؟

-آسف لن أكررها مرة أخرى..

خطف مني الكتاب وكأنني سرقته!

وفعلا لم اعد أكررها فكرامتي كانت بارزة جدا في نفسي تجعلني انكمش عند الخطأ .... كنت أشعر نفسي وكأنني لونا بعيد عن الرؤيا... غائم الملامح.. غريب الشكل والتفاصيل...لم أكن لأذكره بأيامه العصيبة عندما كان يستعير مني كتابا كتبته بيدي الصغيرتين لعدم استطاعة عمتي نظلي إعطائي مالا لأشتري كتابا

جديدا للمدرسة حينها...كنت أشتهيها منه وهو يضيع كتبه! ما كنت لأذكره بتلك الأيام الخوالي أبدا ،و التي كنت أعلمه ما فاته من دروس ،فيسبقني في التحصيل..

.كل هذا كان يفجر حروف البوح في صدري لقلب لا أجد له أذنين...

-كل يا ولد

كانت كل لقمة أتناولها أتمنى لو سممتني.. لو لم أكررها ولا أتناول غيرها.. كانت عينيها السوداوين الماكرتين تشعرني بتطفلي على حياتها.. ولم أكن لأشعر يوما ما بأهمية وجودي كإنسان كامل وكأنني سأبقى طفلا دوما! أبدا...كانت اللقمة التي أبتلعها أمام نظراتها البخيلة كحجر قاس لن يهضم.

ورددت في سري..:

-ما ذنبي إن لم تتزوج؟

****

نقلات نوعية..

بات العالم كله جميعا في كراستي...أعود إليه متى أشاء.. أبكي عندما أريد البكاء وأضحك عندما أريد الضحك.. ذلك لأنني سطرت في خواطري ونصوصي المتفرقة كل ما يجري حولي وبحذافيره حد الملل

أحوله لعالم يخصني وحدي...ينبض في قلبي..يدق عندما أناديه..

أخبئوه عن العيون التي لا أحبها، وأي عيون لا تراني أمامها إلا قليلا؟

هل كل الناس لديهم مثلي مايخبؤونه عن العيون؟؟؟.

إنه عالم لا يعرف طعمه الحقيقي المر إلا أنا. .بيت أتمتع بألوان تخصني وحدي ، وأرض حروفها من اسمي ، ودهاليز أفكار يكفي أنها تسعدني، هو بيتي الخاص الذي أتحكم به كما أشاء ووقتما أشاء وكيفما أريد، كنت كلما خرجت من عالم تلك القراء الشفافة أعود للواقع أكثر قوة وصلابة، أتعجب من جديد كيف كتبت ذلك كله وكيف رضيت به؟!! .

-أنا من كتبت هذا؟ مستحيل..

كان يحدث هذا كله عندما أغيب عن النص الذي أكتب ، لأعود بعد وقت فأجده جديدا جدا!.

ذلك لأنني كنت أقرأ النصوص في كل مرة بشكل مختلف.. أضحك لمّا أجد خطي العشوائي يفتح لي آفاقا واسعة غامرة طريفة جدا، فأقرا على غرار ماكتبت، فيصبح نصا جديدا، لأنني لم أفهم ماكنت كتبته... أضحك لما تنقلب مفاهيم النص عبر كل قراءة متجددة لها، لأجد نفسي أمام فكرة جديدة تمام الجدة ، وأنني أنطقها كردة فعل عما يجول حولي من جديد، تجعلني أكتبها مرة أخرى بشكل مختلف!.

أو بطريقة مختلفة تماما تغيره وتقلبه رأسها على عقب ، أو ربما غيرت منحى الفكرة وجددتها فظهرت لي مناقضة أحيانا لما كتبته سابقا! ، كان كل هذا عالما زاخرا بالمعاني التي تسعدني فعلا، والتي لم أرها كما أحب قديما .

ربما هي ثورة النفس وترقب أفضل.. أعتبرها غنى ما بعده غنى قد يدر علي ربحا ما ويوما ما وفي وقت ما لو ضن علي الزمن بالعطاء... ولم لا؟، فهل أكون كاتبا في يوم ما؟

لكن جهاد لم يكن يعلق على بعضها ، لما أتجاوز حدود سري و أمرر شيئا مما كتبت على خجل مني فيبتسم ويقول:

-يكفي أنها تنفيس يا زاهر.. فعالم الكتابة أصعب مما تتخيل وطريقه طويل جدا ، لعالم لا يعترف بالإبداع الحقيقي، بل ربما كسّر مجاديفه كي لا يبحر بعيدا عما رسمه له المثقفون الرواد في عالمنا..فلهم مسارهم التجاري الخاص..إنه شباك تذاكر سينمائي على الورق.

عندما تقرر أن تكون كاتبا حقيقيا ، فسيكون لك مسارا آخر و عالما آخر هذا لو كان في الغرب ، أما في عالمنا فيجب أن يكون الكاتب موفور المال والأفكار الجديدة، كي يطبع ويوزع الهدايا بلا ربح ولا تقدير!!.

اسألني أنا فأكاد أحرق كل ما لدي من كتابات الذاكرة اليومية لأن أحدا ما قد لا يهمه أن يعرف من أنا..

ومن أنا؟.

إلا لو أصررت أن أكون في يوم ما مختلفا جدا وجدا أيضا...وخاصة من زمننا الصعب..

كان يحزنني رده لبعض الوقت لكن رغبتي في الكتابة كانت عنيدة ، ولم يكن ليوقفني عن ذلك أبدا...وربما كان تأجيلي للهدف الحقيقي منها كان مريحا فعلا...

لحظاتُ صدقٍ..

لا أدري كيف التقينا أنا وجهاد في مكان سرني أنني ألتقية فيه.. كانت سعادتي الغامرة تملأ كياني كله.. وكان في عيني أمرا كبيرا جدا أتمنى أن أصل إليه يوما.. كنت خارجا من مدرستي أسير بمماطلة وتلفت كبيرين، وكأنني أبحث عن شيء ما...لأعثر على جهاد يمسك أوراقا..

وبلا شعور مني اقتربت منه بإقبال منقطع النظير مناديا ومحاولا تخفيف صوتي:

-جهاد ماذا تفعل هنا؟

ابتسم بمكر وكاد يضحك رغم علمي بأنه دوما يحاول الظهور بمظهر الرزين وفي قلبه طفل صغير كنت أعرفه دون أن يتكلم...أراقبه وأراقب سكناته وحركاته...وكأنني سأرتدي روحه المرحة....

-هل ترافقني للمنزل؟

-ولم لا فهو ليس ببعيد...ومدرستك العظيمة " ابن خلدون" تشهد على أيامي فيها...يا الله كم اشتقت لها.. سوف تشجعني لزيارة أساتذتي فربما قمت بعمل توصية لأجلك...

-والله؟

-والله...

-طيب خذ بيدي للسفر غدا.. أريد أن أسافر..

-وماذا تفعل هناك؟

-أريد أن أصبح طبيبا ..نعم طبيب مهم جدا، فربما عالجت أمي يوما ....رأيتها ..والله رأيتها...

وأحزنني حالها جدا.

اطرق زاهر يمسح دمعة هربت على حين غفلة...كانت مالحة جدا...

-متى؟

-كان هناك رحلة مدرسية فسرقت الوقت وذهبت إليها واهتديت.. أنها غائبة عن العالم...سارحة في ملكوت السماء.. إنها غير سوية ..مؤكد أن والدي قد نكل بها..ومؤكد هناك ظروفا كانت أقوى منها.. لقد بكيت جدا.. وكأنني فقدتها...بالكاد شعرت بيدي فقبضت عليها وكأنها وجدتني...تمنيت لو تسمعني..

لو أبكي على صدرها...كم أنا بحاجة إليها...

مسحت دموعي رغما عني...فزوى جهاد ما بين عينيه.. ممسكا بي بقوة:

-زاهر.. أنت رجل.. ولم تعد صغيرا.. وجميل أنك واعٍ لما تفعل...وتأكد أنك بت مسئولا عن امرأتين عمتك ووالدتك..

-وخالتي..

-نعم نعم ..يجب أن تكون زاهر الذي أعرف ...هل فهمت ما أعنيه جيدا؟

-كيف سأكون رجلا؟.. لا أستطيع إعالة احد ولا مساعدة أحد إلا نفسي..

-ستنهي دراستك أولا وتتعرف على هدفك في الحياة ، وتحدده بدقة، وتحدد بعد ذلك المتطلبات المرتبطة به...جميل أن نخطط لمستقبلنا سلفا وباكرا جدا...قد يتغير التخطيط مع الظروف المتجددة دوما، لكن علينا التخديد على كل حال.

-آه أمر صعب صعب...

-سوف تمر الأيام ويتضح لك المسار المناسب وحدك ..المهم البداية بإصرار ، اول خطوة وتمضي...

يسرُ الأمور دليل على صوابها غالبا..

لا أتخيل أن عمتك قاسية لهذا الحد..

-كانت هكذا قبل وفاة أختها. .لكنها الآن مسكينة.. ترى الصور والماضي وتبقى قابعة في المنزل وقلما تخرج...

عدت لمنزلي بعد أن صادفت سامر في طريقي ، وقد خرج لتوه لجلب أغراض لأمه، ولأنني كنت قد تشبعت من الحوار مع جهاد وجدتني لم أشعر بمدى الشوق الذي كان في عينيه...ذلك لأنني كنت قد أحسست براحة ما بعدها راحة.. كنت أخشى أن يسافر جهاد ويتركني من جديد.. لكن الأمل الذي زرعه في قلبي جعلني أنظر إلى البعيد... بعيد جدا...خاصة عندما وجدت عمتي تبكي وحدها بألم ...ولما رأتني مدت يدها مرحبة بي ..وسط مفاجأتي وجمودي...وفرحتي بآن واحد.

****

زاهر يبكي...

لقد أوصاني جهاد بأمي وعمتي...وكان أملي أن أسافر إلى حيث هو فكيف سيكون ذلك وأنا هنا مسمر في مكاني؟ أجتر الماضي بغباء وملل مستمر..

طيف أمي لم يبرح خيالي.. وقد باتت في ذهني شبه جامدة ، صورة وحسب، وكأنها بعثت من الموات لتراني رغما عنها!، حتى خالتي يُمن رغم لطفها لم تشفِ غليلي من عطشي الدائم لصدر حنون أبكي عليه وأرتاح....

ضيق صدري لا يبرحني.. خاصة عندما كنت أسمع أحد أصدقائي يذكر والدته وأطباقها اللذيذة، وحنانها الدافق، وخوفها من برد يصيبه عند خروجه للمدرسة.. لهفتها عند تأخره في العودة، كلامها الرقيق وحنانها.. ..أتخيل والدتي ثريا مع والدي وأسبح في فضاء عقلي، علي أن أعرف السبب العميق لانفصالهما!!.

فأنا لا أدري عن ذلك أكثر مما وصلني....كنت قبل النوم أرتب صور كل النساء اللواتي مررن في حياتي.. فلا أجد صورة تجمعهن سواء في شخص يندمج مع روحي تماما..أبحث عنه مازلت.. أين الخطأ إذن؟

السؤال المزعج دوما والذي يبقى عفريتي يدسه في أذني بمكر:

-لماذا فكرا بالإنجاب ما داما لم يتفقا بعد على كل شيء؟؟؟

ألف ذراعي حول عنقي فأتخيل أحدا منهما يعانقني بحرارة؟، وتلفني وسادة باردة أدفئها بنفسي...حتى عمتي وتغيرها لما فقدت أختها.. لم يملأ فراغا كبيرا أحتاجه بشدة فحوار بت أبحثه كان قاصرا على أن يكون بحجر عمتي...

نزق العجائز أكثر مضاء من سيف حزم الأهل...

لم أجد إلا وسادتي تفيض ماء...كنت أبكي وأهذي بذات الوقت...حتى رأيت عمتي تهرع مسرعة وتترك ما بيدها من صوف كانت تغزله بالأجرة تسد ثغرة لم يملأها والدي أبدا...

-مالك يا زاهر؟

-لا شيء وجدتني وقد بللت وسادتي ..آسف عمتي.. سوف أغسلها بنفسي...

-أنت تبكي يا زاهر؟

-لا..لا

-هل كنت أنا السبب؟، حرارتك مرتفعة يا زاهر خيرا مالك؟

-لا أنا السبب...لا عليك يا عمتي.. أنا بخير..

نصحتني بأخذ حمام بارد مثل صقيع الأيام...وأظن أنني بحت ببعض مما أرقني..

-كنت أعلم أنك ستجد السر الذي سوف يظهر يوما...والدتك أطهر امرأة شاهدتها في حياتي لكنها لم تتحمل زيغ والدك.. فاتهمها بشرفها وصدق الناس للأسف.. وتكاملت القصة لما نفر منها الجميع وصدق .

مجتمعنا قاسٍ جدا يا زاهر، لا يعرف معنى الأعذار والأسباب القديمة المتراكمة.... التي كانت فتيل الاشتعال ،يا لحظها العاثر.. أحيانا يكون الصمت وبالا علينا ويكون الدفاع أو بعض حجج قوية كافية لمنجاتنا...وربما حالة الانعزال زادنا إخفاقا، فأن تعاشر الناس وتصبر على أذاهم خير وضعه الله لنا حكمة وعبرة هي سنة الكون يا زاهر ..نعم سنة الكون..

-أريد أن أسافر.. أريد أن أكون طبيبا.. لأعين والدتي على الشفاء...

-ومن أين لنا بالمال لدعمك؟

-والدي؟

-بالكاد يرسل المصروف...ألا ترى أن عيني لم تعودا تقويان على الغزل؟، ونظارتي القديمة تحتاج تجديدا بعد زيارة الطبيب؟

-سوف أجد مخرجا بطريقة ما...

-توكل على الله ، وكن حازما في أمرك..

كنت أتذكر كلام وحديث عمتي كثيرا وأفهمه متأخرا.. أجتره في لحظات هدوئي وركودي، ولقد كانت تلك ليلة رائعة بحق ،كنت انتظرها منذ زمن بعيد....وجدت عمتي بثوب جديد وحلة أخرى مغايرة.. كل يوم كان يزداد تعلقي بها...كيف حصل بعد مضي كل هذا الوقت...لا أدري فإشارات الاستفهام باتت تدور حولي وتتعبني ...وأحاول أن أغمض عيني حتى لا أراها فتفسد علي نعيمي الجديد.

****

ومن جديد..

أفقت رغم تعكر مزاجي كالعادة ولسبب غامض غريب، تتداخل أفكاري بين اليقظة والنوم، إلا أن خيال أمي كان قد أسعدني بحضوره وما أتذكره جيدا.. أمسكتها كلمتها ولا أدري كيف.. كانت قد ابتعدت وأشارت لعمتي وجارتنا أم راتب؟! تمسكها من يدها تقدمها لي بتمتمة غير واضحة.. لم أكن أعرف عنها سوى أنني ألقي عليها السلام فقط.. فلديها من البنات ما يكفي لكي لا تظهر في العمارة دوما وهي تغرق في عمل لا ينتهي...وحرص أيضا كبير كان يظهر من لمحات عينيها وهي تشبع بناتها نظرات وتنبيهات كنا نتلمسها بقوة لما نراها معهن خارجة لأمورها..

-عمتي يا عمتي...

لم تجبني هذه المرة وقد اعتدت على إيقاظها كل صباح فقد كانت تحرص على أن أصلي الفجر باكرا لأعود لأحلامي الوردية التي لا تنتهي...وتعود أدراجها مصممة على قراءة كتبها الدينية التي لا تنتهي ..لن انس عمري تلك الجلسة الهادئة التي أمضيتها معها ذات يوم صاف.. أحسستها كطيف أمي...التي لم أشبع منها قط ولن ولا...حكت لي كيف تزوجها ثري عربي ..أنجبت منه ولدا أسمته إبراهيم.. كيف مات في حضنها بعد عامين من عمره بلا سبب واضح. .وكيف جذبته ابنته عمه ليتركها وحيدة مشاعرها الخاصة.. وكيف تنازلت عن حصتها من الإرث حين وفاته لان المال لا يعوض عن العواطف الهامة في حياتنا...لم أكن أشعر بقربي منها حتى عرفت كل هذا..بكن سؤالا ممضا أرقني..لم تأخرت في ذكر هذا كله لي؟ هل لأني كنت صغير سن فعلا؟ لكنني كنت رجلا منذ صغري..

كانت باردة اليد والجبين، وقد نزت عرقا طويلا.. هززتها حاولت أن أكلمها.. كانت مثبطة هامدة تماما.. ماتت عمتي بشيرة؟ معقول؟ هل سنموت جميعا هكذا؟

صرخت بأعلى صوتي بلا وعي..عمتيييييييييييي أحبك...

لم أكن نطقتها قبل الآن ..ولم يكن قد مضى على فراق عمتي نظلي سوى عدة أشهر....لم تكن مريضة تماما لكنه ضعف الشيخوخة ولم تكن تعرف عمرها فقد ذكرت لي أكثر من مرة أنه أيام الفرنسيين كانت تقدر الأعمار على النظر...كانت ماهرة في الحديث باللغة التركية..هكذا علموها في الابتدائية، ولكن لم يعلموها ، أهمية الزواج، كان عيبا أن يزوج الرجل ابنته، فيدفعه من الناس دفعا لتزويجها!.

غريب فعلا...

المهم ، أنها علمتني قليلا منها ،ولم أكن لأهتم حينها و أكرر ما أغباني.. كل شيء ينفع ولو كان مدفع...

حكمة مضحكة من عمة حكيمة...

- يا عمتي لم تعلميننني ماذا أفعل بهذه اللغة؟

-يا بني خزن في ذاكرتك كل ما تجده في دروب حياتك مفيدا، سوف تجد له عوزا وحاجة يوما ما ،فكل ما نجده في حياتنا هو منة من الله وأداة تعيننا على حياة لا نقدرها حق قدرها..، كل ما يمر في حياتنا له حكمة ما يجب أن نعرف كيف نستفيد منه جيدا، . سيفك المتين ستكونه خبرة الحياة بوخزها وشوكها.. كي تجتازها بشجاعة وأمان...إلى الضفة الأعلى..

بكيت كالأطفال مناديا رغما عني :

-لا تتركيني وحدي يا عمتي...فأنا وحيد فعلا...

لم أكن أعرف كيف أتصرف.. ولم أجد جهاد في منزله ولا أدري كيف خطر في بالي الخالة أم راتب فقد كانت موطن مديح الجارات للهفتها ومحبتها الصادقة عند الملمات...

-خالة أم راتب أخشى أن عمتي ماتت..

- ماذا؟ زاهر ماذا تقول؟(يعلى قامتي) [6]مسكينة يا بشيرة ماتت وحيدة.. كأبي ذر لم يشعر بها أحد ولم تطلب مساعدة من أحد...رغم أنني لم أكن لأقصر لو طلبت. .يا سبحان الله.. الناس مذاهب...

- وأنا أين ذهبت؟

-سامحني يا بني لكن عمتك كانت نادرة الوجود في زمن المادة.. والاتكال على الآخر. .حتى أن نظمي جارنا فكر بخطبتها وكم ترددت بإخبارها، رغم أنه موضوع يسير لوحيدين يعانيا ألم الوحدة.. لكن القلب لا سلطان عليه إلا الله...كان يغسل وحده ينام وحده ويأكل وحده.. يا لهذه العيشة النكرة...

-أدري يا خالة أم راتب.. انجديني فورا.. فقد وجدت جسدها بارد أًجدا ولا تتكلم.. لا أعرف كيف أتصرف.

أتت معي متلهفة وحزينة لأجلي وهي تنظر إلي نظرات مودة كبيرة...حينها ألحت علي أن أكلم والدي..

-أين هاتف والدك؟ يجب أن تعلمه ليهيئ نفسه للحضور، نكون حينها قد بحثنا عن قبر لها أو لتسأل أحدا تعرفه من عائلتك...

-هذا هو دفترها خالة أم راتب لك ما خطر في بالي يوما النظر فيه بلا أذنها.. كانت تضعه تحت مخدتها.. كل حاجياتها كانت حولها في تلك الغرفة المزدحمة بالأغراض..

-عجبا! كيف ذلك يا زاهر؟

-ابحثي خالة دوني .هو تحت مخدتها مع قرآنها، لا أستطيع الاقتراب...

وبكيت بعيدا عنها وحدي...من هول المفاجأة...وأنا أصرخ بحرقة

---

[6] جملةى دارجة شعبية شامية ، بمعنى يا لقامتي التي لم تعِ ماحصل.

-..صرت وحيدا...

-هل لي بالاحتفاظ بقرآنها زاهر يا بني؟

-نعم طبعا..

فتحت أول صفحة من القرآن. .نظرت إليها ونظرت إلي فابتسمت وذهبت لتنادي لزوجها...

لكنها قالت لي كلمة لن أنساها عمري:

اعتبرني أمك يا زاهر واطلب مني ما شئت..

-حاضر خالتي

كنت خجلاً منها ومن لهفتها المفاجئة.. وجدتني بحاجة للبكاء من جديد على صدر أحد.. لم كلما تعلقت بإنسان تسرب مني لعالم آخر وتركني وحيدا؟

قبلت يدها وبكيت...فضمتني بقوة. .قائلة

-يا بني العزيز.. اعتبرني أمك. .رغم أنك بت شابا الآن.. ولن تحتاجني كثيرا ربما..

جفلت منها عفوا وابتعدت فجأة .. ومن غير قصد رغم توقي لذلك الشعور الذي لم أعاينه عمري...

لكنها فتحت المصحف مرة أخرى. .فوجدتها ترشدني لما فاجأنني حقا وأدهشني:

-بثينة والدة زاهر من الرضاعة

-خالة هل أنت؟

-حان الوقت لتعرف يا زاهر لم يكن لي دور من قبل في حياتك لكنني بدأت أشعر بأهمية وجودي من الآن فصاعدا، يبدو أنه حان الوقت نعم لقد حان..

ضمتني بحنان حار جدا فوجدتني على مفاجأتي أبكي وأبكي.. وأبكي.. على صدرها الحنون...

الآن فقط عرفت لم كان هناك زيارات خاصة بينها وبين عمتي نظلي...

****

ما بعد العزاء...

انقضت فترة غير قليلة كانت لوحة كاملة تقريبا تنتشي أمامي بقوة ما بين والدي وجيراني وأقارب لا أعرفهم إلا منذ الصغر وقلما أراهم اللهم في فترة الأعياد عندما كانوا يمرون بعمتي قديما...لقد حفظت كلمة شكر الله سعيكم ..لكن أي سعي هذا؟، وماذا فعلوا أمام ما أنا بحاجة له فعلا؟، هذه المجاملات لا أحبها ولم أعد أحبها إن لم تجد منفذا للعمل الحقيقي. ..فلقد تركت عمتي بشيرة وأم راتب بصماتهما التي أشعرتني بثقل ما أريد وأبغي.. توقعت أن يترك لي والدي ما يكفيني من مال...لكن هواتف زوجته و أولاده أقصد إخوتي لم تترك لي منه الكثير حينها...لقد دفع لي كل مستحقات المنزل..

وترك لي مبلغا كافيا لأعيش فيه مؤقتا إلى حين يعود لي مرة أخرى...

ما تغير في نفسي أمورا عديدة تكشفت متأخرة جدا.. فقد كثرت زياراتي للعم نظمي وهو يحكي لي عن مغامراته الحياتية ، فقد كان رساما ملأ الجدران برسوماته الحماسية :

-انظر يا بني هذا عدنان المالكي وهو يدافع عن بلاده ضد الاستعمار الفرنسي، وهذا يوسف العظمة كذلك، وهذا إبراهيم هنانو وو

-لماذا ترسم كل من خسر في المعارك؟ هذا ما درسناه في المدرسة.

-لقد تركوا لنا رمزا وطنيا لا يضاهى.. فكم من معارك نجحت وتركت وراءها ويلات خفية.. كانت معاركهم نظيفة يا بني.. هذا ما لم نجده في جل معاركنا إلا أيام الصحابة غالبا..

كان قد دق الباب أسامة هذا الذي لا يظهر إلا قليلا..

-هذا ابن عم الوالد...لم لم تخبرني بحضورك؟

-ما كنت أدري عن هذا شيئا..

كنت لا أعرف معنى لتصرفاته المفاجئة دوما ، ورغم هذا أجده كل يوم إنسانا جديدا.. بثوب جديد..

كانت أم راتب تقدم وتزجي لي مساعداتها بطريقة شبيهة بالفرض والاقتحام المفاجئ، خاصة قبل حضور والدي السريع الخاطف ،حيث كانت أم بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى ، بثرثرتها وقصصها التي لا تنتهي عن الناس في هواتفها وفي حركاتها تعطيني شيئا من الحميمية رغم أنني لا أهوى تلك الهواية ، وأكاد أتعجب في داخلي كيف لها طاقة على ذلك أتكون هواية فعلا؟، ذلك لأن عماتي كن يقرأن القرآن فقط وبعض كتب روحانية لم أفهمها كلها مهما حاولت..

لم أتخيل فرح والدي المختصر وأنا أزف إليه تحصيلي في الثانوية العامة.. و وصولي للدراسة في الجامعة التي أحلم بها..

فقد كان لا يتخيل ذلك مع تحصيلي المتواضع.. ما زلت أريد أن يساعدني عندما أدرس خارج البلاد كجهاد فكيف سيكون رأيه إذن لما أطلب منه ذلك شخصيا؟ وهو الغائب الحاضر؟.

ما أحزنني عودته السريعة لعمله في الخليج.. وعدم اكتراثه بثغرات المصروف المتزايدة، و الذي ربما كان غدا حملا ثقيلا فعلا على جميع من حولي...لقد ترك لي القليل مما يجعلني أعيش ببعض كرامة.. بلا إضافات.. ولم أعد أدري كيف سيكون الأمر فيما بعد...

مازلت أتعجب من التفكير.. بأنني سأبقى في المنزل وحدي؟

وحدي؟؟؟ ..يا للهول..
حاولت النوم في سرير عمتي مضطربا....
صرت أراها في حلمي تأتيني وتفتح ذراعيها لاستقبالي وضمي...
أفيق مذعورا ...
كنت يومها قد نمت بعد قراءة سيرة حياة أبا ذر للمرة العاشرة، وددت لو آنسته يوما، حادثته..
كيف كان يفكر ؟ بل كيف رضي أن يكون وحيدا فعلا؟
ليلتها ألقى السلام على الزباء ...بمحبة كبيرة.. كانت الزباء قد استعارت وجه أم راتب. ... كنت أرى قصرها الجميل بالتفصيل ..يا الله ما أروعه...لكنني لم أجد نفسي بينهما في ذاك الكابوس الجديد...لأتساءل وحدي كيف تسللوا خلسة إلى فكري؟، بل كيف تسلل العم سلمان صانع السجاد لباب داري يحاول تسويق سجادته العجمية الرائعة من جديد التي كان يصنعها يدويا حيث كانت تستهلك من وقته الكثير كما كان يقال عنه في الحي...
كان ذلك بعدما حكت لي أم راتب قصة صبره الطويل وكفاحه المرير ،كي يكسب عائلة رائعة تغير مسار حياته وتجددها ،ليحمل أولاده من الشهادات والتي حرم منها منذ الصغر ، مالا تحمله عائلة مثلها!!!
كنت أُكبر فيه طموحه المشروع، يحرك في قلبي أشجانا عميقة، كان هاتفا يدندن في أذني، الطموح العنيد يولد النجاح.. نعم هذا صحيح في حالة العم سلمان ، والذي كانت سماحة وجهه ومحبته للجميع وحديثه الذي كان يحمل الكثير من ثقافته الشعبية المتزنة ما يلفت النظر ويشعر بالطمأنينة .

****

بدايات حارقة

مازالت عينا عمتي تبرق من خلف الأستار المعلقة قرب النافذة بحزن عميق..و مازلت أشعر بوحدة غريبة في منزل كبير...وبرغم كل اتصالات لا معنى لها ولا مغزى.. لم يخطر في ذهني المتعب سوى أم راتب وجهاد وخالتي ثريا...

ذلك أنني كنت أشعر بالوحشة جدا لما كانت الكهرباء تنطفئ في الليل، وأخرج هائما للعم نظمي أدق عليه الباب بقوة ليفتح لي بعد انتظار ربع ساعة كاملة فقد كان سمعه قد تراجع كثيرا وبت أصرخ لما أريده أن يسمعني، لكن أم راتب عندما تجدني على هذه الحال تبتسم وتقول الله يرضى عليك يا زاهر.

ذلك أنني قررت السفر إليها ،إلى أمي ثريا وخالتي يُمن فمن سيمنعني الآن؟، من سيمنعني من فعل أي شيء الآن؟، ألا يريد والدي تقسم حصة المنزل وبيعه لأبقى في الشارع؟؟؟؟.

من سيمنعني من فعل أي شيء الآن؟؟؟؟؟

- الله يا زاهر...

الله الذي زرعت محبته في قلبي عمتي بشيرة بصبرها وتسليمها ...فطنت الآن فقط لكل حرف كانت تتفوه لي به..

كان الطريق إلى حمص أقل متعة وتشويقا، ذلك أنني حفظته تقريبا من شوقي للوصول حينها...

-رحلوا من هنا وبيع المنزل يا بني وتفرق ثمنه بين الإخوة.. لا أعرف أين رحلوا يا بني.. فمن طبعهم الكتمان والتكتم..

- يا الله...لم يخبروني بذلك!!
-ومن تكون أنت؟؟
-ابن أمي " ثريا"

-عجيب فعلا...

-هل يمكنك معرفة مكانهم حاليا؟

-يا بني ما فهمته أنهم سيرحلون لمنطقة مجاورة قريبة أنت تعرف الظروف الخاصة التي نمر بها هنا في الوطن ...لكن لو كنت مصرا قد أبحث لك عنهم بجدية.

-أرجوك يا خالة ؟أرجوك..

كنت أبكي طول الطريق.. كالأطفال.. لا يهمني من يراني، ولا أعبأ بمن يسألني.. ولا يهمني ما يدور بخلده.. غير أن طعنة نجلاء أصابت قلبي الجريح ..

ألم أترك لهما رقم الهاتف؟؟؟؟؟

عدت أدراجي أدق الباب على أمي أم راتب بهدوء رغم بكائي المؤلم، لكن عدم الرد أثار إصراري وحزني فعدت أدق الباب بإلحاح غريب ودون خوف ممن سيدهش من تصرفي هذا. .كنت انتحب كالأطفال فعلا...

عندها خرج زوجها حانقا مدعيا عدم وجودها عصر ذلك اليوم...لكن منار كانت قد سمعت صوتي المنتحب...فاطمأننت إلى أنها لن تخيب ظني هذه المرة.

كان دور أم راتب يتضخم في حياتي ووجداني ،رغم يقيني أنها كانت تتحين الأوقات وتمررها بذكاء لصالحي.

لقد كان الوقت يتسع ويتمدد بشكل مخيف ، وخاصة بازدهار حاجتي لها ووعودها لي في تلبية حاجاتي والتي كانت تهبني شعورا بطمأنينة متقلصة ومتكلسة لانها أقل مما أنا بحاجة إليه، كانت تدق الباب عصرا لما تجد متسعا وانفراجا في وقتها ،لتشعل مدفأتي المستعصية عن الاشتعال في زمهرير برد دمشق القارص، وأحيانا أخرى كانت تنادي أحد المختصين لتسليك المدخنة المسدودة، كانت الجامعة تؤذن بالبدايات، وكنت قد أنهيت دفتر خواطري ومذكراتي رقم سبعة!.

في الجامعة

دوما كنت أمضي للجامعة بعين خفيضة وخجل ما بعده خجل...لا أدري لماذا، هل لأنني كنت أشعر أن سهام النظرات مصوبة تجاهي؟.

أم لأنني لاأملك سوى بعض ملابس مهترئة تستر عورات جسدي النحيل؟؟.

كنت أستغرب من كثير من الشبان جرأتهم في الحديث مع الفتيات، فأتذكر خجلي عندما كنت أجمع كلمات منار لأعلبها في ذاكرتي وأفرغها في خواطري وقلبي ، و مازلت أعيب ضحكاتهن المجنونة ، ربما لأنني لا أعرف كيف أضحك بقوة، وربما كنت أحسدهم على سرورهم الغريب ! كيف يضحكون ولماذا؟ وكيف؟.

لم أدر كيف ساقني لساني كي أتفوه بما تلفت مني عنوة:

-عيب الضحك بصوت عال هكذا ...

-و أنت شو دخلك؟، لو كانت المرآة أمامك لعرفت من أنت..

مالي أنا؟ وما مشكلتي؟، لقد كان هذا يجعلني في حيرة حقيقية من إنهاء هكذا موقف الذي كان يجعل من احمرار وجهي تشبها بالنساء، فيزعجني ولا أجد له حلا...

هل أضع المساحيق لأخفيه؟؟

لا ليس صحيحا، فالمساحيق لمن يريد إخفاء حقيقته فقط...او ليستدرج أحدا ما إلى وكره...

أنا لا أعرف من النساء غير عمتي ووالدتي وخالتي...كان جوهر الرد يأتيني متأخرا..

فأحدث نفسي ليتني قلت وقلت...يا لقلبي وفكري المتردد بطيء الحركة.
كان يخيب أملي بنفسي دوما.. أتخيل نفسي الرجل الخارق ، أطير في عالم الضعفاء فأزيده قوة وبهاء وانتصارا..

بكل الأحوال كنت أرى في كل فتاة أمّا جديدة...حنان نائم في الجنان...روح رائعة يطول الطريق لبلوغها..

في المستشفى...

فتحت عيني.. فلم أجد أحدا...جالت عيني حول الغرفة...لا أعرف ماذا حصل لي .. كنت وحدي...

فتح جهاد الباب ودخلت معه أم راتب...

-الحمد لله على سلامتك يا ولدي...

-ماذا حصل؟

-أنا التي أريد أن أسألك.. في المرة الماضية قمنا بغسيل معدتك ونبهتك كثيرا ألا تضع في زجاجات البيبسي مادة قابلة للاشتعال ..لكن هذه المرة أشعلت نفسك.. زاهر ماذا جرى؟

-أنا أعرف فقد كسرت الباب حتى دخلت ودخلت معي فرقة الإطفاء.. الحمد لله لم تفسد الأمور الهامة في المنزل كان أمرا عرضيا...حصل خير وأنت سالم..

هل كان بسبب أبو راتب الذي أنبك يومها لكثرة طلباتك؟ هو يراك وحيدا في المنزل ويسرح في تفكيره من جديد ، ربما هو محق ولكن هذا لا يعني أن تفعل ما فعلته بنفسك...أم راتب امرأة مسئولة لا تستطيع تلبيتك كل يوم.. المهم أنها قامت بترتيب منزلك العائم بالفوضى وتنظيف ثيابك وطبخ ما يمكن أن تتناوله لاحقا لما تعود بالسلامة.

-يعني أنني بخير.. أحرقتها قبل أن تحرقني لكن أظني نسيت تلك الزجاجة البلاستيكية .

كم كلفت كل ذلك؟، لا عليك زاهر غدا يحاسب أبو راتب والدك..

-لا يمكن لدي نقودا تكفيني وقمت من السرير فوقعت أرضا بطريقة مخجلة حقا...

بكيت كالأطفال...ضمتني أم راتب للمرة الثانية ...شممت فيها رائحة أمي من جديد ...

رائحة أطباقها التي كانت تطبخها لي وفشلت في تقليدها....بكيت بصوت عال...بكيت لأنني أحبها...نعم أحبها.. أنا أحب والدتي الجديدة أم راتب..

-حبيبي يا زاهر...

رن هاتف أم راتب اللاسلكي فنظر كلا هما لهاتفها الجميل كان جديدا جدا في ذاك العصر...

-سامحوني ناداني أبو راتب...كونوا بخير...جهاد. .الله يرضى عليك يا ولدي أي أمر يحتاجه زاهر خبرني...

-حاضر خالة...

شيعتها بنظري وحضرت معها كل الصور القديمة...عمتي نظلي.. وبشيرة.. خالتي ثريا.. ووالدتي يمان...كلهن حضرن في وقت واحد...وجوه تطابقت فيها الملامح وتفرقت فيها النفوس...كانت العيون كلها تنظر إلي. .وأنا في حيرة من أمري.. لكن عفريتي الذي طال غيابه عني همس لي ضاحكا:

-والله غدوتَ مدللا يا زاهر

قد تكون عمتي نظلي رحمها الله عصبية المزاج.. لكنني الآن بت أتذكر وأتقبل ذلك بعد فوات الأوان... أين أنت يا عمتي نظلي؟، ليتك معي لتشاهدين العز الذي أنا فيه. .وضحكت بلا انتباه ..فقهقه جهاد عاليا بسذاجة من طريقتي المضحكة متسائلا عما أضحكني...

زاهر أنا بخدمتك دوما دلل نفسك ولاتستحي..

****

زاهر والسفر...

مضى على تلك الحادثة أشهر ، كنت لا أحب الدراسة هناك...لا أحبها.. لكنني كنت أدرس وكفى.. حيث أقنعتني الخالة أم راتب مرة أن كل تجربة حياتية ستشكل تراكما في خبراتنا و سيكون رقما مهما فيها يزيدنا صلابة ، يجب أن نستصلحه جيدا ، ونجعله لصالحنا ولكن كيف؟ كيف ذلك والرؤية من الداخل تختلف عن الخارج؟؟.

لا أدري حينها كيف دق الباب فجأة وحضر والدي ومعه أخي...محملا على الأكتاف مكسور الفؤاد والنظرات...كان حادثا أليما حدث له كما قال أخوي، فقد فيه زوجته وماله...يعني فقد كل شيء وبقي له أخوي الذي أرى هنا... وقد تجددت مراسم العزاء من جديد ..تذكرني بعمتّي ويذكرني بالفقد من جديد

لم أكن أعرف عن أخويّ شيئا سوى بعض صور أرتها لي عمتي بشيرة...

لقد كان في حالة يرثى لها حقيقة...وهو شبه مقعد...كنت أعتني به وهو ينظر إلي بعينين دامعتين...وكأنه يبرر بدموعه ما مضى... أو يتحسر أو يبوح بلا بوح...لم يكن ينطق إلا بصعوبة جدا.. وقد سعى أخوي ليبحثا عن عمل يكمل لهما تلك المسيرة الصعبة التي وصلوا إليها...ببعض مال وفراه من جراء العمل معه على حد قولهم.. فقد كانوا يتحدثون معي كغريب دخل حياتهم فجأة...وهما معذورين تماما أراهما.

ما أزعجني جدا أنني كنت لا أملك سوى ما كان يجود به والدي حينذاك فأصرفه بالكاد على حاجياتي...أما الآن فماذا سيكون عليه الأمر؟

لقد مضت الأيام ثقيلة باردة.. فقد دخل حياتي من لا أعرفهم...ولم أعش معهم عمري...كنت قد تآلفت مع وحدتي ووحدتي تآلفت معي...لم يعد التلفاز طوع أمري ولا أي شيء من حولي ..كانت أم راتب ترسل لنا خادمتها لتنظف الدار تطوعا منها.. ورغم هذا كان يؤلمني ما يقوله خالد لي:

-البيت بيت أبونا والغربا يمنعونا...لا نريد خادمات بعد اليوم أنت من ستقوم بكل شيء وسنساعدك لا نريد مصروفا زائدا. ..يكفي ما بنا.

ما محل هذه العبارة من الإعراب الآن فأنا لم أفهمها؟.

فقد رفضوا دخول خادمتها بعد ذلك لبعض أذى وجدوه في بعض الأغراض ،لم تكن تقصده طبعا فجميعنا معرض لتلك الأمور الطائشة ..

طلبت في اليوم التالي من جهاد.. فخرجت زوجة أبيه لطيفة كالعادة.. فكيف يقول أنه لم يألفها؟، جلست جانبا...خجلا من جرأتي تلك والتي تفلت مني عنوة...قدمت لي كأسا زجاجيا لامعا فيه شراب غازي أسود...شربته بنهم... وما كنت فكرت قبلا بتناوله جديا إلا في بعض مرات، وقد كانت حشمتها ولطفها يحركان في قلبي نوازع كثيرة...

-أريد أن أسافر...أنقذني.. يبدو أنني سأختلف مع أخوي! بكل الأحوال أريد الرحيل...

- صبرا يا زاهر ما بك؟، الآن تمتحن النوايا والمحبة الحقيقة، بكل الأحوال أمن ثمن بطاقة الطائرة ..

لروسيا ، وإن لم تكف نقودك سأساهم ببعض كلفتها، ولنا حديث آخر بعد ذلك، فربما بات الأمر مسلما به بعد حين، ولتعلم أن السفر ليس حلا بحد ذاته ، إنما بديلا سهلا لأمور عالقة لم نجد لها حلا في حياتنا، وكان من الأجدى أن يحتضننا الوطن عن أن نرحل هكذا وقد حملنا أمانة القيم والمثل والثقافة التي نعرف.. ألأمر أكبر مما تتخيل

يجب أن يتمسك بنا الوطن ولكن ...هناك أمور خارج التغطية وخارج السيطرة...

- تلك الكيف التي لا أعرف ما الإجابة عنها..
-ستعرف لاحقا ووحدك..

انقطعت عني عن أم راتب كثيرا جدا وربما قدرت ظروفي الجديدة.. وبات سفر جهاد رغم تأخره مؤلما لي جدا...وقصص خلافاتنا أنا وإخوتي باتت حديث الجيران.. لذا أراني سأترك لهم الجمل بما حمل...بإصرار منقطع النظير.

شيء مضحك حد البكاء...

ولكن كيف سأترك والدي؟، وعيناه ترجواني ؟

أمضيت ليلتي وأنا ساهم حائر وضيق صدري يخنقني...فقد أصر أخويّ على عمل مناسب لي رغما و هذا سيكفلني غيابا كبيرا عن الجامعة...مالهم ومالي؟ وعيني والدي تقول نعم ...وأنا ما عدت أفهم شيئا...

مضى على عملي الذي أرغمت عليه عند العم أبو سائر الحمصاني شهرا.. كنت أبكي كل يوم في الليل وسخرية خالد وخليل تدفعني لضربهما، ولكن أمام ضخامتهما كنت أنطوي وأنام مرغما على إغماض جفن لا يغمض...

مرت ذات يوم أم راتب بالحمصاني أبن ناصر وطلبت محادثتي على جنب:

-كيف حالك يا زاهر؟

-كما ترين ...

-كلمني جهاد وقال أن الأمور بخير ، لكن ربما تأخر الأمر قليلا فإجراءات السفر ليست بتلك السهولة التي تتخيل، هذا بصرف النظر عن ظروف عصيبة يمر بها جهاد حسب ما وصلني من أخبار عنه،أن تؤمن له ثمن التذكرة الآن هذا هو الأهم الآن وفيما بعد نكمل البحث؟

- حسنا وأكون قد حصلت على رضا أبي...

-هذا جيد.. ولكن بالحوا ر معه برفق و بمعزل عن إخوتك وهذا أمر هام فلكل حصة ونصيب من والده.. ولا أرضى لك الحرمان أبدا ، وكما أوصيتك دورك الآن فساعدني. .وحينها ستودع أمك في حمص وتمضي...وبكل الأحوال جهاد حديث عهد هناك ربما وجدت فرصة تخصك وحدك فتابع المجلات والنشرات الصحفية.. هذه نصيحتي لك فاحفظها.

- ما تقولينه ماما أم راتب أمر يضعني في موقف صعب...

- ما أروع كلمة ماما من فمك يا زاهر، المهم هاد مجتهد مثلك صحيح أنه يكبرك بأعوام ..لكن لا تثقل عليه نصيحة محب...

-شكرا لك يا .....ماما..

نظرت إلي أم راتب نظرة محبة غامرة لفحتني لحرارتها الكبيرة الصادقة النابعة من القلب....

وكلمة انتظرتها طويلا جدا... صرت أكررها وحدي..
-ماما ..ماما..ماما

رغم أنها فاجأتني بحرقة بقولهاك

-! لا تنتظر أحدا...

لقد أمسكت يدي ضغطت عليها بحنان... نظرت في عيني تؤكد ما قالته وتدعمه ..ومضت...

وددت لو أصيح ملء صوتي... أحبك...أحبك ..أحبك...

ولكن ..كيف لم أنتبه لكلمة :ربما تأخر قليلا؟!!!

****

في المطار...

لم يعد يرد جهاد على هواتفي.... رغم أنني حاولت مرارا مع استغرابي الشديد...كنت أريد استشارته فقط لا غير..

جملة أمي الجديدة كانت ترن في أذني:

عندما يلح عليك أمر مقتنع أنت به ، لا تنتظر أحدا أبدا خاصة لو وجدت بابا مفتوحا له.... وإذن؟. لم يعد للأمر عندي فيه مجال للنقاش.. المسألة باتت كحياة أو موتٍ...خاصة لو حصلت على دراسة مميزة هناك، وربما أجلت الدراسة هنا ..من يدري كيف ستمر الأمور؟، يجب أن أقرر سريعا..

لم أعد أتذكر كيف جمعت شجاعتي وأشيائي وقررت بعد تردد وتفكير كبيرين.. وسؤال يدق على جبهتي:

-كيف ستترك كل هذا هنا؟

إنه عفريتي العزيز ، نعم هو ذاته الذي غاب عني كثيرا .

لم أكن أتوقع أبدا رغم هذا البعد الجغرافي والزمني.. أن أحزن لبعد أمي في حمص لكنني أمضي وألمي في صدري يحرقني ، كيف ضاعت مني أمي؟ كيف لم تخبرني خالتي ثريا؟ كنت ألوم عمتَي فوجدتني ألوم العالم...

لم أعد أعرف مكانها الجديد ..حاولت رجاء أم راتب لتبحث لي عنها ، لكن مالها ومال هذا الهم الجديد؟ ومع ذلك مؤكد لن ترفض!، فهي تحبني و أنا واثق من هذا الأمر ومن لهفتها التي تبقى حارة جدا ودوما.

قد يصبح المنفى الحقيقي أمرا طبيعيا يكرس الاستسلام له ، إن لم تجد من يربطك بحبال المحبة الحقيقية، لكن والدتي أم راتب كانت تدس في أذني هاجسها الكبير ودعاءها الملح ...اعتمد على نفسك ولا تنتظر أحدا..لكن من غير أن تنسى من أحبك بصدق، كانت هذه النصيحة تستجيب مع أحزاني التي حملتها معي إلى هناك.

لن أنسى طبق المحاشي[7] الذي زين منضدة كبيرة في منزل أمي المريضة يُمن، فقد كان فيها يتيما كيتمي الداخلي...تناولت شيئا منها وتركت الباقي لعمتي ثريا وعيونها تحكي قلة الحيلة بصمت رهيب...وتلك آلة الخياطة التي أثرت على ظهرها فبدا لي مقوسا بشكل محزن...رضاها كان يشد من عضدي ولسانها المعسول كان يثير الحزن في قلبي أكثر لا أدري لماذا.. فلما نتعود على طريقة معاشيه خاصة تصبح طقوسا مقدسة لدينا،.. كيف جمعت تلك المفردات ومن أين وهي تشكو الفاقة والوحدة؟، هل هو الرضا بعد فوات سن الشباب؟ أم هو رضا بقلة الحيلة.؟ أم هو الانعزال الاختياري؟ ما فهمته أنني لم أقدم شيئا البتة ، حيث

---

[7] طبق شامي مميز وهو عبارة عن كوسا وباذنجان وربما البندورة والفليفلة الحلوة الخضراء، محشي بالأرز واللحم يغلى مع ماء مضاف له صلصة البندورة المجفف.

كنت على يقين من أنني حتى لو وجدتها لن أقدم شيئا ، وأن طلبا كهذا لن أجد له محلا من الإعراب هنا وفي هذا المنزل الأكثر بساطة من نفسي ...إنه منزل يحكي قصصا خفية لا أعرفها وربما عرفتها يوما ما بنفسي ما أعرفه الآن ، من أن سفري بات قاب قوسين أو أدنى.. وأنه تحقق بعد سنوات كدت أضيع فيها ...وأضيع ما جمعته وجمعته لي أمي الجديدة، الذي كان بالكاد يكفيني لذهابي إلى فرنسا..وليس روسيا.

سرني هاتف خالتي..بعد وقت طويلن وعرفت أين يقطنون وبات لزاما علي المرور بهما قبل السفر...

****

في الطريق...

لم يكن لدي كثير من الأمتعة، ولم يكن هناك كثير من لحظات الوداع... يكفي أن بحثي عبر الإعلانات والمجلات أتى ثماره أخيرا بعد بحث مضنٍ.

ما أعرفه أنني ودعت منار ابنة أم راتب التي كنت أراها كل فترة هابطة سلم العمارة أو صاعدة بقوة شخصيتها المعهودة اللافتة تسعدني بطريقة محببة تثير في نفسي نشاطا وأملا لا تفسيرا له، ورغم كل ما جرى بيننا من مواقف شغب كثيرة ،إلا أنني كنت أحس بقربها الوجداني مني بطريقة ما ، لم أكن لأعرف تفسيرا منطقيا له أبدا، كنت أدري أن زوج ماما أم راتب يصاب بعسر هضم من رؤيتي ، وكنت أعذرها لعدم اهتمامها بي في بعض الأوقات ، إلا عندما تكون عائدة من منزلها فتمر سائلة عن أموري بسرعة ...ورغم هذا كان يكفيني قلبها النابض بمحبة و بصدق والذي فتح لي آفاقا لم أكن أحلم بها..ثمن بطاقة الطائرة.. هذا كل ما استطاعت جمعه لي وبعض نقود احتفظت بها من عملي تسد بها رمقي وتحفظ ماء وجهي .

ودعت أرض الشام وأنا أتطلع من النافذة بشوق جديد، فالغريب جدا ، أنك تحب وطنك في كل الحالات حتى لو كنت مظلوما فيه ،تخرج عنه لكنه لا يخرج عنك أبدا.. هو كجلدك كروحك التي بين جنبيك، وهذا ربما يفسر شعار الأرض أغلى من الروح، والذي لم يفهم مغزاه كل الناس، فانسل بعضهم يمزج روحه بكل حديث وجديد ولو اخترق عقله وروحه، سواء في عالم الغربة أو في وطنه إن شعر بغربته فيه، نعم هذه عبارات أعجبتني في حواراتي مع جهاد.. كنت أردد في سري تعويذة مريرة:

- سامحني يا أبي...لم تكن لتجدني الآن وقد أضعتني صغيرا.. سامحني أرجوك ، مازلت أحبك غيمة بعيدة المنال...وقلبا ما فهمته بعد...وروحا مازالت ظامئة لصدرك الحنون الدافئ الذي يبعد عني صقيع الواقع الصعب...لكن يبدو أن الصقيع مازال موجودا في زوايا حياتي..هل أكتبها؟ هل أرسلها له قبل سفري؟

كان طيف والدتي يراوح أمامي يلبس مائة زي وزي....تظهر لي تارة كزباء تدمر بصولجانها الضخم المخيف، وتارة ...تلوح لي بابتسامة رقيقة ...تفتح لي دفاترها القديمة...لكنها أبدا لم تكن لتضمني يوما...كنت أرقبها ولا أدري هل كان حلم يقظة أم حلم نوم...هل كان عفريتي الذي يصور كل هذا لي؟

أفقت على صوت المضيفة :

- Nous avons atteint l'aéroport d'Orly Nous demandons à chacun de lier les ceintures[8]

****

[8] لقد وصلنا مطار أورلي نرجو من الجميع ربط الأحزمة

أخيرا في باريس...

كان شهر تشرين بكل برده وأمطاره وصقيع مائه الظامئ...مازلت غير مصدقا أني وصلت إلى هنا...لكن وجود هاتف جهاد في حوزتي كان يكفيني كي أشعر ببعض اطمئنان.. يجب أن أتصل به .. لكن ليس قبل أن اعرف أين سأسكن واتصل بالجامعة وأتدبر أموري جيدا، نظرت في دفتر مذكراتي الذي كان يرافقني دوما في تحركاتي وفي سكناتي... كنت أخربش فيه كثيرا..حتى كنت أضحك في سري على نفسي.. عندما أقرا بقلبي لا بعيني.. فيظهر لي النص بمعنى آخر لأن خطي فيه كان أهوجا فعلا...نعم كنت أكتب بقلبي لا بيدي.

وفي مغامرة البحث عن مكان لأتصل به قبل البدء بمغامرة البحث.. استنشق ريح الحرية بقوة وأملأ رئتي الذابلتين...أنا هنا.. ولكن كيف حصل ؟

الغريب في أمرنا دوما إننا لما ننفلت من عقال حياتنا نبقى نتذكرها وكان شيئا ضاع منا ..ولما نعود إليها ..نتمنى لو لم نعد!!ما هذه الأحجية الغريبة؟، الآن فقط سيكون لما قرأته في مكتبة جهاد مفعول قوي...لقد ابتلعت ما حوته كتب التربية الأسرية بقوة وسرعة.. حتى وكتب البرمجة العصبية التي لا أجد لكلمة عصبية محلا لها من الإعراب!! لماذا عصبية؟، أمجانين نحن؟، ليكن البرمجة الفكرية!!!

لم أشعر بنفسي إلا وارتطمت بإحداهن ساهيا.. كانت شبه عارية! يا للهول..

-je m'excuse... pardon

مهذبة وجميلة!!!وعارية أيضا ..رائع..

قفز عفريتي مزمجرا:

-يا عيب الشوم عليك.. غض من نظرك ..

غضضت طرفي فقد كان مشهدا مؤذيا فعلا...وجميلا بذات الوقت، حارقا لقلبي الصغير الغض..

القلب يهوى أحيانا نعم هذا صحيح ، لماذا هو قلب..لأنه في الداخل يضمر الكثير...وهو لب الإنسان..

ترتفع حرارته لأي جديد...

كنت أتذكر كلمات غاليتي أم راتب بل أمي الحبيبة:

-لا تدع قلبك يتحرك قبل عقلك ..ففيه مصائب كثيرة و مطبات قاتلة...

كنت أقرأ أسماء الشوارع فقد وصلت كما يبدو تقاطع سان جيرمان وسان ميشيل..

سان ميشيل؟؟؟ هل سأدرس هنا فعلا؟، اقتربت من سلم المترو.. وجدتني أهبطه بروح مغامرة ...

يجعلني هاتف جهاد أكثر اطمئنانا... حتى أنني لم أستطع دخول ورؤية السكة وخارطتها كما وصفها لي جهاد قديما، لكنني ابتسمت متفائلا بأن أمرا ما ينتظرني هنا...

يجب أن أجرب ملكاتي اللغوية هنا قبل أن أضيع تماما:

?Is there a phone nearby-

il ya dans cette boutique près, vous arabe،Oui-

جميل أنني وجدت هذا الإفريقي يجيبني بالفرنسية وأنا بالكاد يفهم...

or near here .. and through this shop that you see very , I mean yes،y- ... confrontational

جميل أنه فهمني بالانكليزية وأجابني بالفرنسية! ثم الانكليزية مبتسما...

العشاق من حولي.. والحدائق تعج بالعناق الحار.. كما قال لي سابقا:

-إنه شعب يعيش بالحب الذي ابتكر تفاصيله بنفسه...لكنه ليس لنا أبدا.. ولا يناسبنا وليس بثوبنا.. كان الله في عونهم..

كان صاحب المحل لطيفا جدا...

-جهاد أنا في منطقة مابين سان ميشيل وسان جرمان أنقذني قبل أن أضيع...هه

كانت أجرة الهاتف حينها باهظة جدا...يا للبؤس..

****

في منزل جهاد

لقد كان منزل جهاد أنيقا بسيطا غاية البساطة، شممت فيه رائحة فرنسا شرقية.!!.

وكأنها تحجبت فجأة ،ولكن على طريقتها...كنت حينها جائعا جدا، تمنيت لو قدم لي فتة شامية أو فول باللبن الرائب على طريقة عمتي بشيرة رحمها الله مع البصل الأخضر والفجل الأحمر..[9]

كنت أحب هذه الأطباق جدا...لكنني لم أجدها هنا أبدا..عجبا.. وجدت العائض وقد كان كرات البهارات الفرنسية والبريوش الفرنسي والبسطيلة المغربية [10]فقط هي الحاضرة حولي!، فسألته عن ذلك فدخلت والدته حينها وقد أقامت في فرنسا منذ زمن غير قليل بعد وفاة زوجها وقد تعلمت من كل من تعرفت عليه هنا من العرب كل ما تستطيع...إنها شكلت لنفسها عالما مميزا من الثقافة في تصميم الأزياء.. أغبطته حقيقة على أنه أقام أخيرا مع والدته التي يبحث ...لكنه أجابني بموضوعية ويقين:

-أمازلت تبحث عن أمك؟ هي في قلبك قبل أن تكون هناك في وطنك حمص في روحك ... ومن ألح في الطلب وصل.. لكنني لن أنكر أنني أحب زوجة أبي أيضا، هي من ربتني أولا وأحسنت إلي.. مازلت أسأل عنها وأواصلها..الأمهات لهن كثيرا من الصور فابحثها عنها في نفسك.. ستجدها حتما.

فأمك هي التي ربتك التي زرعت فيك ما زرعت في كل مراحل حياتك حتى أتيتني.. هي عمتك وأم راتب التي سعت لتأتيني إلى هنا ، هي وطنك وبلدك هي كل الدفء الذي تحمله من وطنك إلى هنا.. لا تبحث عنها إنها في قلبك.. لكنك تبحث عن استمرارها في حياتك هذا هو كل شيء ، وهل للأمور الدنيوية دور في حياتنا إلا لحكمة الله يريدها؟ ربما كان هذا من حقك.. وهل كان لأمي دورا في تنشئتي؟ فقد ربتني زوجة أبي وكانت صالحة أيضا، قد أكون أمك من يدري؟ وانفجر ضاحكا وقد هطلت دموعه من الضحك رغما...

كان الحديث دافئا بدفء منزله ودفء قلبه الحنون...

إلى هنا وبدأت حياة أخرى تتفتح بداياتها كل يوم ومن جديد...

****

[9] طبق شامي أصيل مكون من خبز مقسم قطع صغيرة وحمص مسلوق ولبن رائب بالطحينة والليمون.
[10] طبق مغربي بامتياز حلو حامض مكون من المكسرات ولحم الدجاج ورقائق العجين.

عالم المستشفيات...

كنت أكتب كل شيء يمر في حياتي على الورق ، أكتب كل ما يدهشني ويلفت نظري ، في حياة تضمر لي كل يوم كل جديد، بت أشعر أنني على كرسي يهتز بي كل حين يأخذني لفضاء لا أعرفه ، يشعرني بحالة عدم استقرار ذاتي، اشتقت لوالدتي الجديدة أم راتب ، حيث كنت أخجل من ربي لما أتذكر أمي الحقيقية التي لم تشعر بي أبدا، ولا أشعر تجاهها إلا بشعور الواجب القوي الذي جعلني مرضها أتوق لأقدم لها خدمة العمر، فلعلها تفيق من هدأتها المريرة، ربما التقينا يوما ما لقاء حميما مازلت أتمناه، لقد كان حرماني منها كل تلك السنين يكفي كي أشعر برغبة في البكاء في كل لحظة أشعر فيها بالوحدة الحقيقية ، ولولا الحياء الذي كان يجللني ويظللني لكررت المرور بمنزل جهاد كثيرا والذي كان قريبا من قلعة الباستيل ذلك الحي المتواضع في باريس، بكل الأحوال أخذتني الحياة الصعبة في باريس بين جامعتي الذي كان مبلغ الرسم فيها 12000 فرنك فرنسي، كان هذا في عام 1985 عندما كان خروجي اضطراريا.

كنت أراوح مابين مستشفى سان باتريبه وبينها وأشعر مدى الإرهاق الذي انتابني ولم أتعود عليه قبل ذلك، إنهم يستهلكونني ، هكذا هي الحياة في باريس، وقد سعيت لدورات لغوية دعمت تجربتي المتواضعة التي لم تكن لتكفيني في حواراتي تماما، كانت المواد الأولية غالية الثمن فقد حاولت تقليص مشترياتي إلى الحد الذي يجعلني حيا، فقد كانت المطاعم التي تقدم خدمة ذاتية للزبائن ،تزودني بالرضا ومن أنني أتصرف مثلهم تماما، وما أضحكني يوما استهلاكي لمقدار كبير من الخبز ، فبقيت على مرمى من نظراتهم التي كانت تتعجب من سلوكي الشرقي الحميم هذا، نعم نحن قوم تربينا على قمح البلاد وبات جزءا منا ومن لحمنا فمن أين قمحكم أيها السادة؟.

كنت أذكر كيف كانت عمتي تعاقبني على كسري لكأس زجاجي بالعشاء الحاف، حيث كان يكفيني نصف رغيف خبز ليملأ معدتي مساء وأنام قرير العين صامتا لا أجد من أبثه شعوري الصارخ، لكنه بنى لي جسدا قويا ممانعا للصدمات ، ورغم أنني لم أبلغ طول جهاد اللافت عندي ، إلا أنني كنت أملك حماس العالم كي أكون شيئا مروقا، رغم أن حيائي وتعثري في بعض سلوكي كان يحرجني جدا أمام جرأة كل من حولي ، كان يدهشني خلع المريض للطبيب ملابسه إلا ما تبقى من عورته كي يفحصه الطبيب براحة، حتى النساء! ما هذا؟، لن أنسى لما ركضت يومها لجهاد أشكو له موقفي المحرج وخجلي الذي أضحك الأطباء جدا في المستشفى هناك، فقال لي:

-يجب أن تعرف أنك لست في وطنك ، وأنك ستعب من معارفهم وقيمهم بقوة ،لكن يجب ألا تخلع رداءك كاملا ، فتصاب بالبرد، يجب أن يكون كما تريد وترضى فلا تنس أنك زاهر العربي ولست فرنسيا مثل المتفرنسين هنا، لكنك ستكون لطيفا دمثا وإيجابيا عموما، هذا كل شيء .

ما زاد موقفي غضا، شعوري المتزايد بغربتي الصارخة لولا جهاد ووالدته، ولولا أنني تجولت في بعض معالم باريس التي فتحت لي آفاق ثقافية جديدة جعلتني أتعود على هذه البيئة الجديدة رغما ، لقد تعرفت على قوس النصر في ساحة الكونكورد ورأيت المتسولين الذين ليسوا كذلك ماداموا يعزفون ويقدمون شيئا هاما.. إلى ساحة السربون وجامعتها التي خرجت العظماء، ورأيت تمثال الفيلسوف أوغست كونت، والحي الذي

عاش فيه كتابنا ومؤلفينا: مثل جبران والشانزلزيه الذي رأيته شارع الانعتاق من القيم...رغم رقيه البادي، وفندق لوتسيا الذي كان يقيم فيه دوما الرئيس بورقيبه والمفضل لديه...

حتى أنني أذكر لما ضحك جهاد ضحكة مدوية ، عندما سمع مني أنني أصلي بعيدا عن الناس وأتكهن بالقبلة وحدي... خاصة عندما كثر اللغط حولي والأسئلة وما هو ديننا ولماذا نتشعب مائة طريقة وطريقة ، فكيف أشرح وكيف أبرر، وكيف أكون قويا بما فيه الكفاية، عندها قال ساخرا:

-هكذا نحن العرب نملك مفاتيح العالم كله لكننا نسمح بريح العبث تلعب بمصائرنا وسلوكنا.. نتأخر حين يمر البقية بإصرار ووقاحة ..

كان يوقظني يهزني ..كان يبعث بي روحا جديدة...

وقد بات ينتابني شعور غريب تجاه من كل ما حولي...عالمنا عالم الأقوياء...كل يريد أن يجعل ويقدم نفسه بطريقة مغرية إيجابية...فأين منا كل هذا؟.

ظهر لي في الساحة الحاج سلمان بسجادته الكبيرة التي كان يحملها على ظهره طول النهار كي يغنم آخره بزبون يبيع له سجادته العجمية الثمينة التي كان يحيكها طوال السنة!!كيف وصلت إلى هنا يا سلمان؟، سؤال أدهشني كثيرا وجعلني أسأل نفسي هل أنا حالم أم يقظان؟، أم هو عفريتي العزيز؟، أين أنت يا أم راتب؟

****

أنا وليندا....

كنت أشعر في خضم دراستي وعملي المرافق في غسل الصحون في برج إيفل والتي سعيت له بقوة بعد أن كادت نقودي تنفذ ، فترأف الله بي أخيرا، خاصة أن صاحبي الجزائري العربي سعى لها بقوة والغريب أن هؤلاء اليهود كانوا مزروعين في كل الزوايا ، حتى أننا لما نجد سياح عرب وتلهف نفوسنا لشم عبق الوطن كان ينادينا ويختلق الملهمات كي لا نخرج لتلبية حاجاتهم ومحاورتهم ولو قليلا ، لما تقل الكوادر ويحتاج لأن نجمع عدة أمورا معا في يوم واحد... ، ومن محاسن الصدف أن التقيت بصديق يعرف سامر مخبرا انه بات مثلي طبيبا ويسافر كثيرا خارج الوطن ، وانه على علاقة غير جيدة معه بسبب بعض أنانية فيه اكتشفها أخيرا، كنت أعاني من بعض فوقية هناك رغم كل الدبلوماسية السلوكية التي كنت أجدها بادية من عبارات اللطف الكثيرة ، لكن صديقي الجزائري الذي سكنت معه أخيرا هو من ساعدني لأتأقلم قائلا:

-إن لم نتوحد في الواقع فالقلوب متوحدة اطمئن. دع حديث السياسة فهي لاتعبر عنا بحال، هي تعبر عن مصالح الكبار فقط، .نحن كشعوب نحب بعضنا وهذا يكفينا قوة...قوتنا في ضعفنا الذي كرسوه لنا، ولايدرون ، سأكون بجانبك بقدر استطاعتي..

كان كلاما رائعا فعلا... حيث بث دفأ حارا في قلبي الصغير...

لم أكن أراه إلا ليلا عندما كان يستهلكنا اليوم كله في العمل ، ونرتمي بعينين زائغتين ننظر للتلفاز بغير قدرة على المتابعة القوية ،فلقاؤنا كان أهم، ورغم هذا لم أكن لأجد الكثير مما نقوله بعد رحلة النهار ، نعم كما قال لي تماما فرنسا تستهلك طاقاتنا حتى آخر رشفة من طاقتنا، هل بتنا نبحث عن رضاها؟.

كنت أبحث عن شيء أضمه كما كنت أضم غطاء السرير في ظلمة ليل بلا شموع، لأشعر أني محط اهتمام فعلا...كان قلبي غارقا في مطر باريس وضباب باريس ...و شوارع باريس كلها عجزت عن أن تعطيني بعضه ،إلا أن أترك لها شيئا من قلبي فيها فأبيت...

كان الدفء المركزي الذي يشع في المكان يسعدني جدا ويرخي أعصابي المشدوجة دوما.

قد استقبلتني باريس بقضية العالم المصري الذي اغتيل في فندق ميريديان في شاعر "مونبرناس بيان فينو"كنت أرهق جهاد في أسئلتي حتى أرى في عينيه ضيقا خفيا فانصرف صامتا ومعتذرا...أثرثر وحدي وأكمل قصصي وحدي...وأجد متعتة جديدة في الخوض مع صديقي الجزائري ذو الاسم الفريد" العربي"

-نعم هذا كان أيام الفرنسيين لما انقلبت ألقابنا اسما..فبقينا هكذا للآن...

لكن ما أرقني بعد ذلك ، حضور أسامة إلينا ومشاركته لنا في السكن...

****

نعم.. لقد قابلتني عيناها السوداوين الشرقيتين نبهتني إلى أن هناك من سيلفك بصمت دافئ، لم تكن جميلة بالقدر الكافي الذي توقعته ، حيث كان في وجهها البض الشديد البياض، وملامح الألمانيات الجسيمات ، مقابل طولي الذي كنت أراه بالكاد حسنا، لكن جديتها وأناقتها كانت تلفت انتباهي جدا...خاصة عندما كانوا

ينادونها ليندا كنت أصحو من غفوتي الضبابية ...هي كلمة السلام عليكم والتي كانت مفتاح معرفتي بليندا تلك الصبية التي كنت أجدها مزيجا غريبا ونموذجا وسطا بين الشرقية والغربية، تسألني عن لازمة التحية التي أحيي بها عفويا:

-هي تحية الإسلام ، تختصر كل التحيات.. حتى أناشيد البلاد العربية كلها ...

لقد جعلتني أتتبع ريحها الرطب الناعم،فقد كان طب الأطفال يستغرقني بقوة، فكنت أراوح ما بين دراسة وتدريب لأطفال تعودوا على شبه العري عند الفحص السريري!!!،إلا من سروالهم الداخلي، و الذي أدهشني حقا، حيث كانت تدور أحاديث كثيرة عن حضانة الأطفال منذ الصباح وحتى المساء وعندما يعجز الأهل عن متابعة ولدهم وإعادته من الحضانة لما هم دون سن المدرسة كان يحول لمدرسة داخلية ينام فيها ، ويدرب على ولائه للمدرسة والمدرسات الذي كن يثقلنه دروسا وتدريبا يملأ الوقت كله حتى المساء بذات التوقيت فهل بقي لدور الأهل شيء؟، وهذا ما لفت انتباهي أكثر هناك كل متعود على هذا النظام، لكننا نحن عرب قل من تقبل بُعد الأولاد عنه مهما كان من مغنم ،بصرف النظر عن معاناة المقيمين أنفسهم، فكان من حظ بعضهم بحثه عن ربة منزل تعينه في احتواء أطفاله لحين العودة ،أو لو كان يقطن قريبا من أهله لهان الأمر، وما لفت نظري أكثر شهادات الماجستير التي كان جل من يتقدم لها من بلاد الشرق النامي، فالدبلوم رغم توفر الدكتوراه ،كان يكفيهم ماداموا يجددون دوراتهم التعليمية المتجددة دوما، و التي كانت تشبه ما يحوز عليه طلاب ألمانيا ويفتح لهم آفاق معرفة متجدد، كانت الأمور هناك مرتبطة رباطا محكما صعبا.

كانت والدة ليندا مديرة قسم التحليل الطبي هناك والتي لا تفتأ تجدد دوراتها الأكاديمية التي لا تنتهي ، حيث كنت أدهش من تحركهم كالآلات...وأخشى أن تصيبني الحياة هنا بنفس الدائرة الصعبة، ويحسدن طلاب أمريكا الذين لا يحتاجون لدراسة الدكتوراه على زعمها حين سألتها ،والتي كانت تحد من فرص الوظائف والمجالات التي يرتفع فيها الأجر هناك.

كل هذا وغيره كنت أسمعه من ليندا وأمها لما كنت أراجع بعض أوراق مرضاي، وأحاول بقدر الإمكان تحريك وتحويل الحديث لصالحي، كان هذا يجعلني أهتم بشكل كبير في داخلي بهذه الأمور وبليندا وأمها أخشى أن يخرج تصرفي لو حصل سمجا منفرا، فمن عادتي الصمت غالبا ومع الجميع ، إلا لو استنطقني معلمي شارل أو احد الممرضات [11] وكنت أجمع شذرات مما تقوله النساء هناك حتى أيقنت من أن ليندا فيها روح عربية جذبتني بقوة منقطعة النظير فصرت أحاول أن يجمعني معها موقف ما.. كانت أمها الألمانية أريكا وحشمتها والتزامها الأخلاقي الذي بدا لي في مواقفها اللافتة ،يجعلني أشعر بغبطة كبيرة ، وحمدت الله أنني عرفتهم يوما.

-زاهر سيحسدونك لأنك من بيئة شرقية خالصة تعرف معنى الأسرة، أول سؤال سوف تسأله هنا : مع من تعيش؟

-لم أفهم يا ليندا..

---

[11] كانت تدعى هناك بالفرنسية/infirmière

-واقعنا آلي جدا،و مادي جدا ،وغريب جدا، أنت إنسان ناجح علميا وواقعيا ، وتعرف كيف تأتي بالمال الحلال جيدا، هذا كل ما يجب أن تقوم به، كان الشباب هنا يسألون بعضهم هل أنجبتك أمك قبل الزواج أم بعده؟؟؟، فبات السؤال الآن مع من تعيش؟؟...

عالمنا يعاني من عطش عاطفي عميق، لا يغرنك ما ترى من حضارة ليست ذات عمق وجداني حقيقي يذكر...يمكنك مضاجعة إحداهن لو طلبت مقابل مردود جيد.

-يالله...

-ما يحزننا أن الإسلام وصلهم خطأ فقد باتوا لا يعرفون إسلامنا الحقيقي، إلا من نماذجه المغلوطة...يا للبؤس.. باتت مهمتي ثقيلة في التعريف به كمسلمة، رغم أنني لا أملك القاعدة التي تتمتع بها أنت...ربما تشكو من فقدانك لأمك في نشأتك لكن لو رأيت الكم الهائل من القيم التي تحملها في عقلك ونفسك لعرفت مدى ما تملك من قيم ثمينة...

ما كنت أتوقع أن تكون حياتي مع عمتي التي كنت أجدها غير كاملة محط إعجاب وغيرة ممن حولي

حتى عبارة مستهلكين جدا، كانت عبارة متكررة تتردد بقوة من حولي و على كل فم...يشعرني بمدى القسوة الحياتية والغربية النفسية التي يحيونها رغم أنهم يتمتعون بميزات عالية لو خرجوا خارج بلادهم..

ولقد كان تدريبي في مشفى سان باترييه بابا واسعا نظرت إليه بطموح كبير ..كبير جدا...سيكون مخزونا جيدا لما بعد ذلك..

ومازال حديثي عن الحب مع ليندا يترك علامات استفهام كثيرة:

-الحب كقشرة الموز تقشر مرة واحدة فقط، وترمى لغيرك، والمرأة مظلومة في وسائل الإعلام وعمليات التجميل، والمجلات والمحال التجارية...لقد مسخوا الحب لما استهلكوها هنا هي كالرجل تماما ،كل يعيش من جيبه حتى لو كانوا تحت سقف واحد.. وبعد ذلك ينجبون ولد يعيش بقية عمره مثلهم أيضا يبحث عن نفسه وحده من جديد..

-المرأة هي من ظلمت نفسها يا ليندا ، لأنها سمحت للعابثين بالتسلل لحياتها الرائعة، لو عرفت من أول امرأتين طالبتا بتحرير المرأة لعرفت تماما المغزى،... لقد كرمها الإسلام ...لكنها إلى الآن لم تتعرف على الكنز والماسة التي تحملها في روحها وقلبها.. هي كنز ومازال كل ينقب وحده..

لقد بدأت أشعر الآن بالحد الفاصل بين شرقيتي وغربيتي الطارئة، والتي بت أعيشها فيها من خلال طريقة معاشي الجديدة ، ومن خلال نفحات تنعشني من طيف ليندا...تلك التي كانت ثمرة أم ألمانية وأب سوري.. إن لم أكن مخطئ..والسعادة التي قدمتها لي من خلال عالم المستشفيات ، كانت كملاذ الروح ينشدها كل مجروح.. يبدو أن ليندا ستجعلني شاعرا..

كان لقائي بها في المستشفى وكونها متدربة فيها مثلي وتخصصها في الطب النفسي جعلني أكثر الأسئلة خاصة أن والدتي وبعد ذكر حالتها لليندا قدمت لي أفكارا لإخراج والدتي من حالها..

لم أستطع الوصول لهذا السؤال إلا بعد عناء فقد كان خجلي يكبلني ،أنا الذي ما نطقت وخدرت من صومعتي بقوة ألا مع والدتي الجديدة أم راتب وجهاد الذي فتح لي بابا لم أتخيل أنه سيفتح يوما..

كنت بحت لجهاد بحاجتي لأنثى تجمع شتاتي ..فقد كنت التزم بسكن المستشفى ولا أقبل عرض جهاد في زيارتهم ، لخجل في نفسي حاول كسره بترتيب موعد ودي مع والدها كي نزورهم .

كنا كل مرة نرتب موعدا تأتي الظروف فتفسده.. حتى تركت الأمر للقدر قليلا فربما ...

وقت يمر...

مضت السنوات وئيدة قاتلة وأنا أرتب حياتي حسب الأدوات و المعطيات التي توفرت حولي، كنت متقشفا بامتياز ، لا تهمني صحتي بقدر حلم أعيشه بكل كياني ،كي أكون شيئا مهما أعتز به، أسكن منزلا يخصني لي وحدي بعيدا عن ذاك البيت الذي شهد أحزاني...كانت طريقة حياتي الجديدة تستهلك طاقتي جدا لدرجة قد لا أجد وقتا طيبا للحديث والاختلاف في وجهات النظر الطفيفة مع ليندا.. ذلك أن كثيرا من الفتيات الجريئات كن ينطلقن بالحديث معي بلا خجل خاصة الممرضات ،لكني كنت متماسكا حذرا وخجلي كان يخدمني حتى أن سنثيا الانكليزية صديقة ليندا أطلقت يوما ما ضحكة عالية لما فتحت لي جانيا من قصصها ومغامراتها العاطفية، كنت أتقزز رغما عني من قصصها التي كانت تثيرني وتثير اشمئزازي بذات الوقت...

هناك باعوا رحمهم منذ زمن بعيد.. وعلقوها لريح العصروالأنانية ..ونحن بعنا تربيتنا القويمة ومبادئنا الأصيلة ، لذا فنحن في وضع أخطر...

كانت تزيد تخوفي من ليندا أن تكون صديقة لها.. وبت أتعجب كيف تصون ليندا نفسها من هكذا صاحبات حتى لدفعني ذلك يوما لأمرر تلك المعلومة بطريقة شكوى، لكن أمرا ما كان يلجمني ويكبلني عن كيفية فتح موضوع كهذا ومع ليندا...فحواري معها كان يفتح لي نافذة على عقلها الغض.

كل ما يهمني الآن، هو اعتلاء منصب كبير في مستشفى يسيطر عليه يهودا يملكون من اللطافة ما يجعلونك تميل لهم ليقولوا لك لو أخطأت يوما بتحريض منهم :
-أنت من تتبعت هذا الأثر وزللت...

نعم هكذا حذرتني مرة ليندا قائلة:

احذر من مقولة : أنت الذي فعلتها ...بعد أن يكونوا قد زينوا لك الموضوع ووجدوا له تبريرا مناسبا ..ليس هناك من حرف يتفوهون به إلا موظف بعناية.

عندما أنهكتني الدراسة تماما كي أصل لأعلى المراتب في الإدارة وجدت الدكتور جاكوب يبتسم محركا حاجبية الشرقيين بوعد غامض مظهرا مباركته لي ولاجتهادي، كان يعيش مع كلبه فقط.

مما أسعدني بعد إلحاح وطلب وانتظار سنوات ،أن اختاروني للذهاب لمؤتمر طبي في المغرب كان توقي لسفر يزيدني خبرة ويمتحن مدى ذكائي الطبي جعلني أحاول الحصول على الموافقة دون منافسي بقدر الإمكان...كنت اتذكر بعض جمل قالتها الدكتورة أريكا:

- سوف أتدبر لك الأمر نحن العرب مكافحون وناجحون، أين ما ذهبنا حتى لو حصلنا على الابتسامة التي نبحث ،لكنها لا تحوي على أي معنى من معاني الابتسام، اخترقناها وحصلنا على مانريد لأننا نريد،إلا لو كان لهم نصيب منها بتسللهم..حدسنا يتكلم دوما ، لكن لايقترن بفعل غالبا.

هناك حد فاصل ما بين المجاملة والابتسامة الصفروية لا نعيها تماما لحسن نوايانا.. اهتم بتلك الدورات التعليمية الداعمة وسأكون بجانبك...

لم أصدق أنني وصلت لتوي للمطار ،وما أسعدني بريد وصلني حينها من ليندا الكتروني، تودعني فيه بعبارات رقيقة أحببتها جدا.. مختصرة جدا تذكر فيها اسمي بطريقة أدبية رائعة، كان فاتحة حوار بيننا أسعدني جدا حتى العمق...نعم حتى العمق.

****

في رحاب المغرب العربي

كان كل شيء هناك جديدا.. وقد استقبلني أستاذان من المغرب العربي دكتور سليم وسعد عبد الرازق، ذلك أنني لاقيت حفاوة ما بعدها حفاوة عشت فيها حياة مغربية خالصة.

حفظت فيها مفردات منوعة جعلتني أضحك ملء فمي...فقد بادرني الدكتور سليم مدير المؤتمر الطبي هناك قائلا:

-يا أزعر من فين أنت قل لي؟

-أنا أزعر؟

-غمزني حينها سوري مقيم هناك قائلا:

-أزعر في اللهجة الشعبية التونسية يعني أشقر .

كنت فاتحا ، أحمل عينان عسليتان كبيرتان، ووجع مدور شرقي، وطول معقول، يمكنني التلبس هنا بلبوس الغربيين لو وضعت بايبا في فمي هه

وأكمل مستطردا،هو مقيم هنا و قد عاد من قريب من تونس..

ضحكت حينها جدا ومن قلبي لكنني أحسست فعلا أنني بين أهلي وقد شجعهم خجلي على اقتحام أسواره ودخول قلبي وعقلي بقوة فريدة...

قابلت فيها الدكتور سعيد عبد الرزاق ، قدم لي شابا كان يشبه سامر..

-أقدم لك سامر شاب مجتهد يدرس طب أطفال في فرنسا من قريب وربما يجد عملا في مشفى سان باتريه يجب أن تعرفه فهو من سوريا..

سوريا؟ سامر؟ ما الذي أتى به إلى هنا وقد كنت نسيته تماما.. كانت مفاجأة غريبة بعض الشيء...إلى هنا وتلحقني يا سامر...كم كنت ناكرا للمعروف.. لكن الحياة هكذا...لا أدري كيف استأنست به. .وعرضت عليه السكن معنا فنتقاسم ثمن الأجرة بيننا نحن الثلاثة...

كان فندق فيلا بلانكا في الدار البيضاء ذو الأربعة نجمات مقبولا جدا ،وجميل أن سكناي فيه على نفقة المشفى ، لأنه بالنسبة لدخلي كان باهظا ، والدراهم المغربية بين يدي لم تكن كثيرة، وقد أسعدني الدكتور سعد بترديده كلمة مزيان بزاف لما كنت أحكي له عن سوريا وأهل سوريا وأطباق سوريا واختمها مارا بطموحي الكبير في مداواة أمي وإنشاء مشفى كبير في بلدي .

كانت رحلتني مع الدكتور سعد ودودة وقريبة من قلبي جدا، ذاك المغربي البسيط النفس طلق اللسان والمحيى، والذي يتفوه بجمله التي أحسبها من زمن الصحابة الكرام، لغة عربية نظيفة ما رأيت مثلها في بلد!!!

كانت المنطقة الشمالية من مدينة مراكش الرائعة ،تكاد تكون كلها جامعية، سكنا وإدارات تحيط بكليتي الآداب والحقوق كما تهيأ لي لما تجولت مع الدكتور حيث كانت قيادته لسيارته قيادة هادئة متزنة مثله .

وحديثه الذي يعرف لي فيه مراكش والجامعة والجغرافية المغربية أسعدني جدا:

- حول الكليتين الواقعتين شمال المدينة يوجد الحي الجامعي حيث يقطن الطلبة، بيد أن الطلبة صاروا يفضلون شراء السكن المستقل، لا يجدون عنتا في الحصول عليه لأن أصحاب المنازل المبنية حول الكليتيتن ما بنوها إلا لأجل ذات الغاية الاقتصادية، لا يجدون عنتا في الحصول عليه لأن أصحاب المنازل المبنية حول الكليتيتن ما بنوها إلا لأجل ذات الغاية الاقتصادية، وفي مكان غير بعيد عن المنطقة - في غربها - يوجد (ممر النخيل) منتجع سياحي باذخ جدا لا يعرفه إلى (المقربون) والأثرياء المغربيين،

ولا يقال عن مدينة مراكش بأنها أغلى المدن سياحة في البلد ،إلا لأن سياحتها سياحة أكبر الفساد وأعظم البلاء، هذا وقد استغلت الكليتان لعقد الأنشطة (الثقافية السياحية) كالذي جرى العام الماضي عن الموسيقى الروحية، وليست في الواقع إلا ذريعة لإشباع غرائز الجسد لا سيما وأن أولئك (الموسيقيين الروحيين) من الشواذ ، تلبس بالموسيقى الروحية كل دنس ونتن وكل خبيث لتلوين أساليب تمرير الفساد والعياذ بالله.

إنه الغزو الفني الذي طغى على كل فن في بلادنا وغيرها بثوب الحداثة..

ولما كرر سؤاله كي انقل عملي لهنا وأبقى معه وقربه لمحبة بدت تنمو بيننا ورغبة منه في مساعدتي لما بسطت قصتي كاملة.

- أليس أولى برئاسة الجامعة في باريس أن تكون هاهنا ؟ يا زاهر؟ ، أو على الأقل أنت عنها فترفد بمعارفك الجديدة؟

كنت رأيت ملامح كل من المشاهد الجامعية ...الشارع هناك لا ينشئ حركته ليلا ونهارا إلا الطلبة الجامعيون الباعة على الرصيف الممتد لا يبيعون إلا أغراض الدراسة الجامعية المقاهي و المطاهي ، ومقاهي الإنترنت لا يملأها إلا الطلبة الجامعيون ، وكذا المكتبات لا تبيع إلا مقررات الأساتذة الجامعيين المدرسين في الكليتين أما الدور والمساكن فقد بناها أصحابها لتقدم حصرا للطلبة الجامعيين .....

قلت : صدقت ، لكن مقر رئاسة الجامعة يكاد يكون بعيدا ، يكاد يكون في أدني الجهة الجنوبية من المدينة وإن كانت الحركة فيه متواصلة والاكتظاظ ملحوظا غير أن محيط كليتي الآداب والحقوق أكثر قوة واستقلالا .....-

كنت أحاول فهم بعض ما يتندر به من كلمات لا أفهمها تماما، لكنني كنت أتمتع بابتسامته العريضة وعينيه الذين يشرقان بالمحبة والمودة.. وجمله الفصيحة العميقة التأثير في نفسي، وسمرته التي جعلتني أبحث لها عن جذور.. كنت كلما بحت له عن ألمي عبر رحلة البحث عن أمي نظر إلي بعمق.. قائلا:

-لاتكل من البحث.. لكن تأكد أن ما تبحث عنه بنية صافية سوف تجده أمامك يوما...

كانت جمله لامعة تركت بريقها في نفسي زمنا طويلا اكرهها كدرس لم أحفظه بعد...

وتساءلت بعد تكراره لفكرته الطارئة التي لم تخطر في بالي:

-هل فعلا يمكنني الانتقال إلى هنا يوما ما؟، هل كان اسمها فعلا القاضي عياض؟

كانت رحلتي في المغرب رائعة بحق، رغم أنها كانت مكلفة جدا ، لم أتخيل أن تكلفني سيارة أجرة للتجول في الأسواق هذا المبلغ لكن مجاورة اخوين من الجزائر ومشاركتهم لي حسب اقتراح السائق فرجا ومخرجا. تقاسموا الأجرة كل واحد يدفع عشرة دراهم، فهما سيذهبا للعين دياب**!!**ما أضحكني جدا من السائق هذا المزيج الغريب مابين الأمازيغية والفرنسية والمغربية**!!**

-يا رجل لم نعد نفهم منك شيئا ..

فضحك الجزائريين ومضى الطريق ونحن نحكي عن بلادنا العامرة بالمحبة للعرب جميعا..

فذكر أحدهم أن هناك أمازيغيات وليست واحدة...وان اصولهم عربية، وليس الأمر كما تذكره سياسة فرنسا التي تفرق ولاتجمع...

يا للعجب... أمازيغيات وعربيات...

-فعلا هذا مزيان بزاف..كنت قمت بحمام مغربي كمغامرة مني وتجربة، وتنظيف وجه بالطين عجيب غريب.. كان قد نصحني الدكتور سعد بالذهاب لشلالات أوريكا ،فحجزت في فندق أبيس ، وقد كانت وجبة الغداء باهظة الثمن .ناهيك عن رجلة في صحرائها المشمشة الرائعة والتي يسعدك أن تتفلت بدراجة نارية سريعة .

ما أسعدني حينها...أنني مررت عدة أيام لدمشق، حسب ترتيباتي ، و مررت من خلالها بوالدتي..

كان الجو خريفيا ممتعا...والأرض مكسوة بورق الخريف الأصفر...الذي يتكسر تحت قدميك القاسيتين...

لقد بكيت على حجرها البارد كثيرا...

أما أم راتب فقد عانقتني بشدة وهي تبكي..

-عشت وشفتك رجال وطبيب كمان يا زاهر.. كانت جملها المحبة تكفيني زادا للعودة لعالم الدراسة والعمل من جديد..

خاصة بعد تناول المحاشي الشامية اللذيذة، وطبق الحرق أصبعوا العدسي[12] بامتياز.

[12] هو طبق مكون من العدس الكامل مع العجين المقلي مع البصل بزيت الزيتون، مليئا بالكزبرة والثوم المقلى.

كان سفر زوجها فرصة لي لأتناول وجبة غداء عامرة بالأطايب فعلا ،كانت تلك الظروف أكثر ملائمة لي كي تدعمني عاطفيا وتقدم لي ما ينقصني...

لكن ما حز في نفسي فتورا في لقائي بإخوتي...وصحة والدي المتراجعة والتي كان بالكاد يتكلم معي وهو قعيد الفراش...

-تعرفت على بنت مصرية والدتها ألمانية، سأكون محظوظا لو قبلت الزواج مني...

قال بتردد:

-من هو والدها؟، لا تقل شريف

-نعم هو ذاك شريف الأصلي

-لا لن يحصل ولو على جثتي

-والدي ماذا تقول؟

-كما أقول لك لا ولن ولم وكفى.. لو أعدت الحديث مرة أخرى سوف أغضب عليك

-أفهمني.. ،اشرح لي ،لم أعد فتى غريرا..

-لم نتفاهم أبدا...كل له طريقته في التجارة، و لم أفهم طريقته حتى كدت أغرق، بل حتى وقت متأخر جدا بعدما ارتبطنا بعقود كثيرة لا طعم لها ولا لون،اخترقها من خلال نفوذه والأشخاص الذي يعرفهم... ربما خسرت من جراء تلك الشراكة .....لانه لم يخبرني بكم الربح الذي ناله بعد مرضي وبيعه للبضاعة بلا إخطار.

لقد أمضينا كثيرا من الزمن في المحاكم.. أفقدتني الكثير من المال.. كان أخوه قد تزوج بزوجة من بلاده والدتها خليجية أكسبته قابلية للتملك والتجارة بحرية هناك، وما كنت مثله أبدا، فكيف أتاجر معه إذن ؟.

حتى لو كان أخوه محرك للأمر، أين عقله؟؟.

وإلى أين المسير؟ ومالي ومال الأسواق النسائية هناك؟. لأعمل بها وانشر هناك بضاعتي؟.

لم أكن أحب المغامرة في أمور لا تحمد عقباها..ولم تدرس جيدا.

الحياة جردتني من اندفاعي بعد أن فهمت كثيرا من الدروس متأخرا .. لا تعد تلك القصة مرة أخرى على لسانك أبدا.. لا أريد أن أتذكر.

كان هذا الأمر قد عكر صفو أيامي وأصابني بشبه جنون ...

وكان مرض والدي يلجمني عن المزيد من الضغط.. فما وجدت مناصا من الحوار مع أخي حميد...

لكنه جاملني بفتور...قائلا وبجفائه المعتاد:

-أنت غائب منذ زمن ،فأنت تبني نفسك ومستقبلك وتترك لنا همك كله

-همي؟ تركت لكم الجمل بما حمل..

غريب

كم وددت لو ذكرت والدتي أمامه ليرق قلبه..ولكن لم ينفع الأمر ، فقد مضت لمصيرها بلا رجوع...

مضيت وأنا ادري أنني لم أجد حلا أبدا...لكنني كنت بعنادي ، قد قررت تذليل تلك العقبات بطريقة ما..

ونهشت أسئلة كثيرة في صدري المتعب.. والذي ينادي أمي في كل نفس أتنفسه...رغم أن الله هو أول من أرجوه وأدعوه..أ شعر بمسؤوليتي وعبئا يحيط بي.. لما لم يسأل أبي عن والدتي ؟ وبعد كل هذا العمر وخاصة بعد فقده لزوجته الثانية. كيف لم يشفق على حالها كل هذه السنين .هل غابت أخبارها عنه، هل غاب فضوله ؟ولم لم ينقذها احد أقربائها مما وصلت إليه من خيبة وغارق في غياهب المرض؟، هل ما بني على خطا يكمل طريقة في البناء الخطأ؟، لم يجب حميد طبعا لأنه كان غائبا عن كل هذا فقد كان يصغرني بعشر سنين...

لقد تركتَ همي يا أبي في صدر عماتي ،في صدر أمي أم راتب علها تجد مخرجا، والوقت كان قد ينفد بسرعة ويمضي يأكل من عمري ،يأكل من روحي وعمري، وهموم الدنيا تمددت فوق رأسي، كغيمة لا تمطر إلا قليلا،.. خاصة عندما أيقنت أن والدي يتراجع أمامي صحيا بشكل منقطع النظير...وحاولت التمهيد لكي ترجع السواقي لمجاريها.. ولكن كل شيء كان قد تباطأ أيضا إدراكه وفكره وطلاقة لسانه...

ما كنت أحب الشكوى ولا تعود أن أمارسها بعبث،..إنها ضعف النفس وقلة الحيلة، لكن لحظات صعبة قد تدفعك لذلك فتعود لتشكي نفسك لنفسك!! أو تلجأ لربك وهو أقصر الطرق.

جاءني بريدا الكترونيا، من جهاد أن ليندا قد خطبت من سامر... ما صدقت بداية أبدا واعتبرتها مزحة سمجة لحثي على الحضور، لكن لماذا ليندا بالذات؟، كان هذا الخبر يكفيني لكي يلهب نارا حانقة في نفسي وأعود لأكذب الخبر من جديد ..هذا أمر غريب..

وماذا جئت تفعل هنا يا خالد وقد تركت لكم الجمل بما حمل؟، ما هذا الخبر الجديد أيضا والمفاجئ؟، لماذا أخبرتني بهذا يا جهاد؟ ألم يسعفك صبرك حتى أحضر وأعود؟، بات للتقنية أصوات لا أعرفها تئن في أذهاننا وربما لا توقدها بقدر ما تلهبها وتشعلها حرارة بلا معنى ولا جدوى...

رتبت سفري لأمر بدمشق وأنا في قمة الغضب محاولا اختصار أعمالي لأعود لباريس مرة أخرى.. على وجه السرعة وأنا لا ألوي على قرار حقيقي حينها لأني ما حسمته مع ليندا وما عرفت كيف سيكون...

****

فوات الأوان...

لم تغب عني جملة أم راتب من أن ليندا ربما كانت غيمتي الماطرة... وليس دوما للاولاد علاقة بمسيرة الآباء...

عناية الله سوف تيسر لي ما يناسبني.. بإذنه تعالى، هكذا كانت تقول لي ، ولم أكن أعير تفاصيل الجمل كثير اهتمام ، كنت اتصل بها كل أسبوع أتزود منها كلماتها الرقيقة الحنونة، أجمع نصحها بلهفة وشوق، خاصة أمثالها العريقة، التي كنت أحسبها تعويذة اليوم وضربة حظ تتجاوب أحيانا مع مزاجي المضطرب والذي كان يحمل آثار الماضي بقوة.....

فكيف حصل ذلك ماذا حصل؟؟؟لماذا يا سامر ولماذا ليندا بالذات؟؟؟

-هل تعلم يا زاهر أن هناك من الشرقيين من يذوب في تراب الغرب وينسى أنه كان يوما على أرض وطنه؟، وهناك من الغرب يملك عقدة نقص لأننا نحيا حياة عائلية ممتازة..تناقض طبيعي يحصل لايفلت منه إلا كل قوي،يرسم حياته بدقة وثبات وعزيمة لاتسفها ريح التردد والانجراف للعدمية ...كن محدد الرؤى والمسار ..

-كيف يذوب ويتلاشى في ذاك العالم؟

-ذلك لأنه حمل معه القهر والعذابات التي جعلته مؤهلا لكي ينسى وربما يتناسى.. ويذكره به تركة ضخمة أو مصلحة قفزت لساحة حياته يوما ما، العرب يفتقدون لرسالة قوية تجعلهم أحياء في نظر أنفسهم والعالم...شيء مضحك فعلا..

-غريب ما تقولينه يا ليندا..

-بل هو على ضوء تجربة ستخوضها هنا في بلاد الغربة، فلدينا من جميع الألوان والأطياف الشرقية، قل من أمسكها بقوة ربما المتدينون المعتدلون خاصة، الذين فهموا ماذا تعني أمة وسطا...

فهم دوما دبلوماسيين برفق يحملون معهم قيمهم الدينية أينما حلوا وحيثما حطوا...لكن الغرب يحاربهم خفية وبصمت ومازال الصوت يعلو ويعلو.... وربما علا أزيز الرصاص..فمن لايجد له عدوا، يبحث له عن عدو جديد..هذا هو عالمنا للأسف..

-والهدف..
-تجاري خالص..أين يصرفون الأسلحة؟

-في صدورنا

-ياالله..صحيح ماتقولينه مقنع تماما..
-ربما كان الأمر ليس غربيا صافيا وهناك ما خفي علينا من مصالح غابت عنا كأفراد. .فوالدي كما تعلم مصري يحمل في قلبه مصر كلها بأهراماتها وأرضها محبة شعبها لله ومحبته لكل العرب...ولكن ...

-ربما فهمتك...لكنني اعتقد أنني متدين أيضا ، رغم أن هذا المصطلح كل يفهمه بطريقته... فالإيمان في القلب، يترجم سلوكا وعملا.. قبل أن يكون زيا ومظهرا.. وأنا كل ما كنا نتلقاه في المادة العسكرية من نظام وانضباط نحتاجه بطريقة ما أيضا.. للالتزام مائة لون ولون.. لكن الخط الأساسي واحد أبدا.

-لقد عرفت التدين الحقيقي هنا في فرنسا يا زاهر ،لاحتكاكك بأصدقاء جهاد كما كنت تذكر لي...فأمثالهم في الغربة يتلاحمون بطريقة رائعة جدا يحسدهم عليها الغربي نفسه...

مازال حديث ليندا في أذني يرن بقوة.

ليندا أين أنت؟ ماذا فعلت يا سامر لماذا ليندا بالذات؟؟؟ولماذا يرفضها والدي؟ يبدو أنني لم أفهمك عمري.. أنتَ لغز عميق فشلت في تفكيكه.

كنت غاضبا حزينا في داخل نفسي ،لا أعرف ماذا أفعل ...

****

لقائي الأخير...

كانت شانون رأس الحربة التي أكملت مسيرة قهري وجعلتني أرى أن حياتي الأولى بكل ما فيها من أشواك لا تعادل عشر معشار ما رأيته هنا...الجماهيرية والشعبية التي حظي بها لفتت نظري في هذا المستشفى العجيب...كان دمثا رغم قلة حواراته مع الجميع، هادئ بحنكة، متسلل بدهاء غريب...حتى أن هناك أمورا ما فهمتها كانت توطد رباط العمل بينه وبين شانون!! مديرة المستشفى اليهودية الماكرة..

شانون يا تلك الحرباء التي كدت بسببها أخسر سامر الذي لم أكسبه بعد.. خاصة لما ولته منصب إداري كنتُ أحق به منه!. بحكم طول المدة التي عملت هنا..
-ماذا يعني مدير أو مديرة؟؟كلنا في درب العطاء سواء... ولكل دوره الذي حباه الله به، هكذا كانت تقول لي منار..لما كنت أشكو إدارات المدرسة.

بات حواري مع سامر قريبا فقد حلت كل المشكلات بنظري..

لملمت جملا تناثرت في ذاكرتي من منار كثيرة لما كنت في دمشق مؤخرا..:

-لا تدع أخطاء والدك تصبح أخطاء فيك في المستقبل ...لأنك تملك رؤية جديدة في عصر جديد ..والدك لم يكن تاجرا يوما ما...إنه حسير الرؤية التجارية..

فلتكن المنارة الجديدة التي تهدي من بعدك...فالحياة لن تنتظرك حتى تعي. .هي تمضي بسرعة البرق،، فاغتنم الفرص ، فهي لا تتكرر...كمعلم لم يجرب التعليم، لكنه يعرف الطريقة، فإن لم يجرب ويختبر نفسه نسي ماتعلمه...إنه عندما يعلم يتعلم..لأنه ذاكرته باتت تعمل بقوة، وغدا يراجع ماتعلمه للضرورة.

لنترك هنا، بصمة واضحة تكون شعلة مضيئة لمن بعدنا.. معظم من نواجههم يكونون كظاهرة عنف لا يطاقون لكن لو نبشنا باطنهم، لوجدنا خير لا يدانى وأحيانا يكون العكس صحيح فلا يغرنك الظاهر يا زاهر، أبدا دقق أبحث تابع...

هكذا تفهم العالم أكثر...

****

النهاية:
كنت أستغرب مرونة شانون أخيرا في إرسالي للمؤتمرات بعد أن حاولت مرارا الحصول على موافقتها في المرة الأولى... كنت أشعر بمشاعر غير مريحة تجاه جاري سامر..

-لا أدري كيف واجهت سامر إثر خطأ إداري بسيط ، وجرى جدال قاس في منزل جهاد كان الأخير قد جمعنا معا في منزله ... حيث حدثته كيف كانت شانون تضحك من بعيد.. لما كنت أرمق سامر بعيني القادحتين، كانت ليندا تفهم ما يجري هناك تماما، وفي كل الزوايا المشابهة ، وتخشى أن تدخل موضوعا ليس من اختصاصها...بعد أن كاد دمي يجف وروحي تصل لحلقي مما كان يناله سامر من رفيع مراتب مؤخرا وأنا الذي أمضيت سنوات غير قليلة في العمل والمثابرة..

لن أنسى كيف أمسكني جهاد متشبثا بمقدمة قميصي صارخا:

-إن كانت وحدتك سببت لك الأنانية فليست هنا يا عزيزي..

سامر أقدر منك إداريا ، فهو محنك ملهم وموهوب ، ورغم هذا فسوف تصل لما تريد بجهدك أنت لا بانتظار الزمن فقط، ، ولتعلم أن وصول سامر إلى هنا كان أملا وطموحا كبيرا...ليكون كما يريد ويأمل بعدما سدت في وجهه الطرق في الوطن للأسف.. فهو لا يعرف كلمة واسطة. ووالدته التي هي أمه حاصرته حتى في نفَسه لتعلقها الشديد به.. وهذا عين الخطأ.. فاسأله كيف استطاع الحضور...ليست كل الأمهات أمهات يا زاهر أو لنقل يستطعن ممارسة الدور بشفافية ووسطية...

بكل الأحوال هناك مستشفى باريس 7 كما أعرف ربما قبلت الجامعة تدريبك هناك ما الضير في ذلك؟ ،هنا يا عزيزي لا يوجد شيء اسمه عواطف إلا ومزجت بالأنا والمال، جميل أن يكون لدينا البدائل ،هذا إن أردت الهروب...متى ستفهم أن مثاليتك وعاطفيتك يجب أن تكون متطورة جدا في عالم يجري بل يقفز ولا يتوقف عن الجريان..؟، ولا تنس أن هدفك الوفاء لوالدتك الوفاء فقط.. فأنت لا تعرفها جيدا.

و مازلت تشنف أذني بترديد ألمك وبحثك المستمر عنها.. فليكن.. ولكن لتعلم أن ظروفك عموما كانت جيدة فقد عوضتك الحاجة أم راتب عن فقدانها ،وبت الآن في مراحل متقدمة من مشوار العطاء، فكن عند حسن ظنك نفسك أولا ومن حولك ثانيا.

أمك وطنك كل من أسدى لك معروفا بصدق يوما ما، هو أم...
فرد الجميل له بمحبة ودون تشنج ونزق، أمك ، كأم راتب ودين في عنقك والتزام برد دينها الجم ليوم القيامة.

لقد أصابني حديثه بالصمت المطبق. .والحيرة الكبيرة ..في البحث عن رد مناسب..

ما أذكره جيدا أنه أخذني جانبا وهو يقول لي بأسى لي عند ارتفاع ثورة غضبي الهوجاء :

-لو تعلم ماذا كانت تريد فعله شانون لتفرق بينكما لن تصدق ، لقد حاولت أن يكون لسامر يدا في دس جرثومة لعينة تكون فيها فأر تجارب لسبق علمي كان يرتب منذ زمن بعيد، هو نفسه تعجب من سلوكها

الغريب هذا، لكن سامر أبى والتف عليها بحنكته المعروفة و بطريقته الخاصة. ندعو الله أن يمر هذا الموضوع على خير..

بينما كنت ذاهلا وأسبح في بحر الدهشة العظيم. .أجدف بقوة دون أن أبحث هذه المرة عن مجداف...

همست حينها ليندا مخرجة إياي من فضاء تفكيري المر :
-هل ستخطب فعلا يا زاهر؟

كان سؤالا مفاجئا جدا ، ذلك أنني عرفت من والدتها أنها تبحث عن دفء عائلي ، وأنا لا أملك إلا نفسي..

هدأ من روعي سؤالها ،وخفف شعورا جديدا كاد يدخلني معمعة جدال جديدة مع سامر، و الذي رميته أرضا رغما عني ودفعته للجدار فشج جبينه!!

-زاهر هل تعلم أن سامر الذي مازلت تجادله وتدفعه للبعيد حمل معه خبرا عظيما جدا يهمك؟، خاصة أن والدته توفيت حديثا فارفق به أرجوك.

- رحمها الله ولكن ما هو هذا الخبر يا جهاد؟

-لن أخبرك إياه الآن ، اذهب إليه بنفسك ..

-كل شيء يأتي متأخرا حتى الحقائق و الفرص....

-اتصلت بسامر بعد أن ذهب على مضض بعد صلح فاتر بيننا...لا أدري كيف حاورته ليلتها ..حاولت كظم إحراجي وضيقي ..

- شكر الله سعيكم ،لم يعد يهم كل ما مضى يا زاهر، ما أعرفه الآن أن الحاج نظمي اتصل بوالدتك وبحرارة وأنت تعرف أنه قريب لها من طرف عمتها .

-لا لا أعرف ..لم يقل لي بل ربما لم ينتبه ولم يخطر في بالي تنبيهه ..

- لقد أصر على أن يتواصل مع والدتك ، تلك التي قضت حياتها وحيدة الجدران، والمرض، وخاصة أنه بات يتوقع أين ستكون ..

-أين تكون بالله عليك أخبرني؟لم أصل إليها بعد كان العنوان خطا..وضاع مني رقمهم..خيبة وفشل..

-اسمع يا رجل أنا ناقل فقط وما أدراني بالتفاصيل؟.

قد تناهى سمعه أنها تحسنت صحيا بفضل أخيها لما عاد من ليبيا مؤخرا، يعني خالك، لقد جاءت ابنته من هناك تخبره بذلك ،لقد رحب بذلك بحرارة، وكان يسأل عنها كثيرا ،كانت الدموع تهطل من عينيه لأنه لم يقدر مدى الألم الذي سببه لها قديما ..

-يعني الحاج نظمي يعرف مكانها؟ يعرفها جيدا؟ كيف لم أعرف حتى الآن؟، كيف لم يقل لي أحد عن هذا شيئا؟؟؟كيف كيف؟

-ليس المهم أن نجد ما نبحث عنه، بل ماذا يمكننا أن نفعل بعد أن نجد ضالتنا..

وهل سيرمم نقصا في حياتنا أم هل سنرمم له هذا النقص؟، ما أكثر الفرص التي تأتينا وما أقل حيلتنا عندما تحضر ويغيب عنا الذكاء حينها...

ما أذكره جيدا أنني قد جئت يوما لماما أم راتب غاضبا ،خاصة عندما عرفت أن إخوتي سيبيعون المنزل...وأرجو أن يكونوا قد عزفوا عن ذلك الآن ، كنت هرعت لمكتبتي الأثيرة فلم أجدها أبدا...لقد جرى بيننا شجارا عنيفا ..وصلت ريحه السيئة لخارج الحي. .بلا فائدة تذكر.. فقد تبخرت وتبخر برحيلها أرشيفي الأثير..

كانت مكتبيي هناك تحوي كثير من المراجع الهامة ، موسوعات ما عادت متوفرة في يومنا هذا..، وخاصة مجلة العربي من أول عدد ،مجلة المعرفة التي تغني عن مائة نت.. فيها كراسات أودعتها خواطر قديمة لن أستطع تذكرها.. فهي وليدة المواقف في ذاك الوقت. .يا الله.. هل حان وقت إتلافي؟

صرخت في وجه أخي خالد كما لم أصرخ به من قبل:

-أين مكتبتي الأثيرة يا فهيم ؟ هل تمسحون برميها ذكراي؟

لم يجب حينها خالد بل دهش من صوتي وعنفواني.. و ما توقعه أبدا ، بل ربما اعتقد أنها كتب قديمة لوالدي الذي بات كلامه ثقيلا جدا وسمعه كذلك، كان قد بدأ من قريب عمل تجاري جديد في أدوات مطبخية فريدة، ومحل فاره لم أتوقع أن يستطع بعد ما حدث أن يقوم به.. كان مقداما فعالا بطريقة مدهشة فعلا...

-ماما. .لماذا كل هذا يحدث في غيبتي؟ ماذا فعلت بالله عليك؟

-لا يوجد ربح بلا خسارة...لقد نسيت أن تنبههم على ذلك، كنت تفكر في سفرك فقط.

كان عليك القول: أنها غالية لديك وأثيرة .. وعلى أنها تهمك، وعلى أنها نادرة بنظرك.. لم نفسك أولا يا زاهر..يكفي نكدا..

كل متاع الدنيا يعوض.. لكن هناك ما لا يعوض يا زاهر أبدا ..هيا معا فهناك في الحياة ما هو جدير بالخوض..

يجب ألا نعي الحكمة مما يجري حولنا متأخرين. .اعلم أن الله يحبك نعم يحبك.. وكل من حولك كان يحبك بطريقته لا بطريقتك كن واثقا من هذا ، فلا تكن أنانيا الآن.

مانلته لم ينله إخوتك أبدا..

الطريق مازال طويلا يا زاهر.. أنت بخير والأبواب كثيرة أمامك ، فالحياة تتجدد كلنا نتجدد وفي كل يوم..

ما كانت الدنيا ساكنة أبدا و إلا لانتهت وانتهينا معها، هي تتجدد بنا وبتجدد آمالنا وأحلامنا ..حتى الحلم يتغير..

كانت ليندا قد دعتني لزيارة أهلها وحضوري للطلب الرسمي إياه، فوجدتها فرصة لآتي مع والدة جهاد حيث شرحت ظروفي الخاصة حينها، و فاجئني سؤال والدها شريف وأمامي مما أحرجني وأصابني بالذهول الحقيقي :

-لم أتقبل زاهر يا ليندا ولا أتخيله زوجا لك فما رأيك أنت؟

-ما تريده يا والدي ما كنت لأرفض رأيك أبدا مهما كان...

فزعت من فوري وعقد لساني وانتابتني دهشة مع والدة جهاد التي لم تجد جوابا مناسبا حينها.. فتنحنحت محاولا الانصراف بصمت...فانفجر ضاحكا وهو يقول:

-ما كنت أجد خيرا من زاهر ولا خيرا من تربيتك يا ليندا، وفقكم الله سوف أهتف لأبي زاهر قريبا جدا وأسترضيه فهو مازال غاضب.

من هنا بدأت ملحمة المحبة. .ومن هنا بدأ مشوار جديد برفقة ليندا الحبيبة...الذي بدأت روعته تتبدى زهورها الندية كل يومز

****

الختام

كانت ليندا تردد على سمعي كلما ذكرت أمي وأنا في بلاد الغربة.. كلمات أظنها ثمينة جدا في نظري:

-من الطبيعي أن كون لنا أم من لحمنا ودمنا نحبها وتحبنا، ومن الطبيعي أن نجعلها قريبة من حياتنا إن لم تكن ملاصقة لها ،لكن الأهم أن نعرف هل نقدر في مكنون نفسنا الآن معنى الأم الحقيقي؟ وبعد رحلة طويلة في مشوار تلك الحياة الغنية؟، أنت هوية و سفير بيئة وعائلة كبيرة، فالأم مفهوم كبير يا زاهر كبير جدا أكبر مني ومنك ،أكبر من الأم الحقيقية التي تبحث، ربما الحياة الديناميكية التي أحياها حجبت شيئا منه فنكاد لا نلتقي إلا مساء كعائلة ولا أتحدث مع والدتي غالبا إلا من خلال العمل وقليلا جدا أيضا..لقد عايشته أنت أكثر مني لكنك لا تعترف به أبدا ، ذلك لأنك تبحث عن الأم الفيزيائية فقط.. الدموية فقط... رغم أن هذا من حقك ،كم من أمهات خرجت وربت أعداء للوطن .. مجرمين.. أعوانا على الغدر على الخيانة.. فأي أم هذه يا زاهر؟

يا زاهر.. الأم الحقيقية هي التي خرجت قوادا وجنودا ، علماء وسفراء حق ،هي أكبر مما تتخيل بكثير.. فليس كل أم هي أم.. الأم هو كل من تعرف وكل من دفعك لمشوار العطاء بإخلاص زاهر يا زاهر.. الأم وطن وقيم وبشر يقدمون لنا ونقدم لهم ، الأم رسالة وهدف الأم مفهوم واسع جدا. .مفهوم رائع جدا كثير هم الذين لم يفهموه جيدا.. المهم أن نثق من أننا نقوم بالواجب ،ونعرف كيف نصل لحقوقنا بالطرق القويمة، فنكون هنا بدأنا رحلة العرفان بالجميل وإلا فما فهمناها ولا فهمتنا.

الرضا نصف الحل غالبا ولمعظم المعضلات المستعصية لحين حلها بعون الله..

هل سأجد أمي حقا؟ هل باتت أفضل حالا فعلا وكيف بهذه السرعة؟، وهل لو ألتقي بها ويجمعنا القدر معا ومع والدي تحت سقف واحد سيتغير كل شيء؟.

ما أعرفه الآن أن الدنيا ميزان. .وأن الله متكفل بموازنته لو مالت كفة دون أخرى...هي حكم ما بعدها حكم...

الرضا نصف الحل لكل المعضلات...

ما أعرفه أنني أحبك يا أمي..ويا أمي ..ويا أمي...ويا أمي..

تمت